من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ } [التحريم: 8].

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، و هادي البشرية إلى الرشد، وقائد الخلق إلى الحق، و مخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا: محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فهذا هو الجزء الرابع من هذه السلسلة: «في الطريق إلى الله»، وهو يتعلق بمنزلة عظيمة من منازل السائرين إلى الله، والسالكين طريقه تتت، وهي: التوبة.

ومن علماء السلوك من يقدم التوبة على غيرها من منازل السالكين، ومقامات الصالحين، كما فعل الإمام الغزالي في كتابه «منهاج العابدين»، حيث جعل «عقبة التوبة» هي العقبة الثانية بعد «عقبة العلم» الذي اعتبره أول ما يجب عبوره واجتيازه لمن ينبغي الوصول إلى الله تعالى، أي إلى رضوانه وحسن مثوبته.

وفي «الإحياء» جعل للتوبة الكتاب الأول من «ربع المنجيات»، ولكني في هذه السلسلة لم ألتزم ترتيبًا معينًا، إنما أقدم للنشر ما يفتح الله تعالى علي بإنجازه، وقد يمكن ترتيبها فيما بعد ترتيبًا منطقيًا.

إن علم التوبة: علم مهم، بل ضروري، والحاجة إليها ماسة، وخصوصًا في عصرنا، وقد غرق الناس في الذنوب والخطايا، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وتكاثرت عليهم المغريات بالشر، والمعوقات عن الخير، وتكالبت على صدهم عن سبيل الله، وإغرائهم بسبل الشيطان: وسائل جهنمية، وأجهزة جبارة، تقرأ وتسمع وتشاهد، وتؤثر بالصوت وبالصورة وبالغنم واللحن، وبالتمثيل والتهويل، وتعاونت على ذلك شياطين الإنسان والجن، وأعداء الداخل والخارج، وساعد على ذلك الأنفس الأمارة بالسوء، وركونها إلى الدنيا، ونسيانها للموت، وللحساب، وللجنة والنار، وغفلتها عن ربها وخالقها الواحد القهار، فلا عجب إذا أضاعوا الصلوات و ابتعوا الشهوات، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، و فرطوا في حدود الله، وحقوق الناس، واستمرؤ وا أكل أموال الناس بالباطل، ولم يبالوا بما كسبوا من مال: أكان من حلال أم من حرام.

ألا ما أحوج الناس على نذير يصرخ فيهم: أن أفيقوا من سكرتكم، وانتبهوا من رقدتكم، وثوبوا إلى رشدكم، وتوبوا إلى ربكم، قبل ان يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

في هذا الجزء اجتهدنا أن نوقظ القلوب الغافلة، ونرد العقول الشاردة، ونقوي العزائم المسترخية، وأن نبين للناس أهمية التوبة وضرورتها وفضلها، ووجوب فوريتها، و نبين مقوماتها وأركانها وأهم أحكامها، كما نبين ثمراتها ومكاسب التائب من ورائها في الدنيا والآخرة، كما بينا الموانع منها، والعقبات في طريقها، ثم البواعث عليها، وقد أطلنا في ذلك لشدة الحاجة إليه في عصر الشهوات والغفلات والشبهات.

ولقد اهتم علماء السلوك جميعًا بالتوبة وتحدثوا عنها، عن حقيقتها وأركانها وشروطها: من أبي القاسم الجنيد وأبي سليمان الداراني وذي النون المصري، ورابعة العدوية، وغيرهم.

وكذلك المؤلفون في السلوك: من المحاسبي إلى المكي إلى القشيري إلى الغزالي، إلى ابن القيم إلى من بعدهم.

ولقد بين الإمام الغزالي في مقدمة كتاب «التوبة» من «الإحياء» أن التوبة عن الذنوب – بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب – مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر، وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات، والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم، وتندم على ما سبق منه وتقدم، فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة، فقد زلت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة والمقربين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان؛ فقد أزدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سحيتان، وكل عبد مصحح نسبه، إما إلى الملك، أو إلى آدم، أو إلى الشيطان؛ فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان،

والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنًا محكمًا، لا تخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم، أو نار جهنم».

ولقد كان عمدتي ومرجعي الأول: كتاب الله، وسنة رسوله صصص، ثم ما جاء عن سلف الأمة. وقد اجتهدت ألا أعتمد على حديث ضعيف في حكم أو توجيه، وأن أبين من أخرج الحديث ودرجته باختصار، فما لم كان يكن صحيحًا ولا حسنًا لا آخذ به، ولو كان في الترغيب والترهيب، وإذا ذكرته فللاستئناس لا غير، أو أكون ناقلًا له عن غيري، مبينًا ضعفه غالبًا.

هذا، وقد انتفعت في هذا البحث بجملة كتب وخصوصًا لعلماء السلوك، أهمها كتابان أساسيان:

أولهما: كتاب «مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**}» للإمام أبي عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية، الشهير بـ «ابن القيم» وفيه أبدع وأجاد، بقلم الأديب البليغ المتدفق وروح الداعية المربي المحلق، ووجدان الرباني العارف المتذوق، ونظر الفقيه الأصولي المتعمق، وتجريد الموحد الصادق المحقق، و هو حين يطلق لقلمه العنان، يتدفق تدفق السيل الهادر، ويموج موج البحر الزاخر، ويورد الأوجه، ويوضح الأسباب، ويبين الأحكام، ويشرح الحقائق.

وقد استفدت مه كثيرًا، ونقلت كلامه بنصه في كثير من المواضع.

كما نقلت من كتابه «الداء والدواء» في بيان أثر المعاصي.

والثـاني: كتـاب «إحيـاء علـوم الـدين» وهـو الموسـوعة الشـهيرة فـي علـم السلوك، وهو يشتمل علـى أربعين كتابًا مقسمة إلـى ارباع أربعـة، كمـا هـو معلوم: ربع العبادات، وربع العادات، فربع المهلكـات، وربـع المنجيـات، وأول كتاب في ربع المنجيات، هو كتاب التوبة.

والغزالـي فقيـه أصـولي منطقـي مرتـب الفكـر، تعتمـد تصـانيفه علـى حسـن التقسيم والتبويب، وترتيب الأفكار، وضرب الأمثال، و روعة الأسلوب، وقد استفاد منـه كـل مـن عبـده، كمـا اسـتفاد هـو ممـن قبلـه – وخصوصًـا «قـوت القلوب» للأبي طالب المكي.

وقـد اقبسـت منـه كثيـرًا مـن الأفكـار، كمـا نقلـت كلماتـه بنصـها فـي بعـض الأحيان.

أسـأل الله الكـريم ان ينفـع بهـذه الصـحائف: كاتبهـا وقارئهـا وناشـرها، وكـل مـن أسـهم فيهـا بجهـد، لترجـع القلـوب إلـى ربهـا، كمـا أسـأله سبحانه أن يتـوب علينا توبة نصوحًا، يكفر بها سيئاتنان ويرفع بهـا درجاتنـا، ويـدخلنا بهـا جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار {**رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ**} [التحريم: 8].

الدوحة: صفر الخير 1418هـ

يونيو 1997م

يوسف القرضاوي

* * *

وجوب التوبة وفضلها

وجوب التوبة وضرورتها.

التوبة من النفاق.

التوبة من الكبائر.

التوبة من كتمان الحق.

توبات الأنبياء في القرآن.

التوبة في السنة النبوية.

هل تجب التوبة من الصغائر؟

وجوب التوبة على الفور.

* * *

وجوب التوبة وضرورتها

التوبة من الذنوب التي يقع فيها المؤمن - وهو في طريقه إلى الله - فريضة دينية لازمة، أمر بها القرآن الكريم، وحثت عليها السنة النبوية، وأجمع على وجوبها العلماء جميعًا: علماء الظاهر، وعلماء الباطن، أو علماء الفقه، وعلماء السلوك، حتى قال سهل ابن عبد الله: من قال: إن التوبة ليست بفرض، فهو كافر، ومن رضى بقوله فهو كافر، وقال: ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة، وقد جهل الناس علم التوبة(1).

التوبة في القرآن:

ولقد عنى القرآن بالتوبة أبلغ العناية في آيات كثيرة من سوره المكية والمدنية، ستمر بنا في مواضعها إن شاء الله.

توبوا إلى الله توبة نصوحا:

ومن أبرز ما جاء في القرآن قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ}** [التحريم: 8].

وهذا آخر نداء إلهي للمؤمنين في القرآن، يأمرهم بالتوبة إلى الله توبة

---

(1) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (جـ1 ص179).

نصوحًا: خالصة صادقة، والأمر من الله تعالى في كتابه العزيز يدل على الوجوب، ما لم يصرف عنه صارف، ولا صارف هنا، وذلك ليكونوا على رجاء أمرين أو هدفين أساسيين، يسعى إلى تحقيقهما كل مؤمن، وهما:

1 - تكفير السيئات.

2 - ودخول الجنات.

وكل مؤمن في أمس الحاجة إلى هذين الأمرين: أن تكفر سيئاته، وتغفر ذنوبه، ولا يخلو إنسان من أن تكون له سيئات وذنوب بمقتضى التكوين البشري، الذي امتزج فيه عنصران مختلفان: عنصر طيني أرضي، وعنصر روحي سماوي، فأحدهما: يشده إلى أسفل، والآخر: ينزع به إلى أعلى، الأول يمكن أن يهبط به إلى حضيض الأنعام أو أضل سبيلًا، والآخر: يمكن أن يرقى به إلى أفق الملائكة، وربما خير مقيلًا.

من أجل هذا كان كل إنسان عرضة لأن يسيء ويذنب، وكانت حاجته إلى التوبة النصوح، لتفكير ما بدر منه من سيئات.

والأمر الآخر: دخول الجنات، ومن ذا الذي يستغنى عن دخول الجنات؟ فأهم ما يشغل المؤمن هو مصيره الأبدي، هذه قضية المصير الأولى للإنسان: أينجو يوم القيامة أم يهلك؟ أيفوز ويسعد أم يخيب ويشقى؟ والنجاة والفوز والسعادة في الجنة، والهلاك والخيبة والشقاوة في النار {**فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ**} [آل عمران: 185].

توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون:

ومما جاء في القرآن عن التوبة قوله تعالى: {**وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ**

ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ} [النور: 31].

وفي هذه الآية أمر الله جميع المؤمنين أن يتوبوا إليه، لم يستثن منهم أحدا، مهما علا كعبه في الاستقامة، ومهما ارتقى في سلم المتقين، فهو في حاجة إلى التوبة. فمن المؤمنين من يتوب من الكبائر إذا ألم بها، وهو ليس بمعصوم. ومنهم: من يتوب من صغائر المحرمات، وقل من يسلم منها. ومنهم: من يتوب من الشبهات، ومن اتقى الشبهات فقد استرأ لدينه وعرضه. ومنهم: من يتوب من المكروهات. بل منهم: من يتوب من الغفلات تعتري القلوب. ومنهم: من يتوب من الوقوف عند حال أدنى، حيث لم يرتق إلى ما هو أعلى.

فتوبة العوام، غير توبة الخواص، غير توبة خواص الخواص، ولهذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين! ولكن الجميع مطالبون في الآية الكريمة بالتوبة لعلهم يفلحون.

ويعلق صاحب القاموس على هذه الآية في كتابه «البصائر» فيقول: هذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان، وخيار خلقه: أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم، وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة (لعلكم تفلحون) تعلق المسبب، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

وقال بعض علماء السلوك: التوبة واجبة على الكل، حتى الأنبياء والأولياء، فلا تظن أن التوبة اختصت بآدم سسس، حيث قال تعالى: {وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ} [طه: 121، 122].

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس البشر، لا يمكن فرض خلافه، ما لم تتبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فالرجوع - يعني التوبة إلى الله في حق كل إنسان يكون ضروريًا، نبيًا كان أو غبيًا، وليًا أو غويًا، يقول أبو تمام:

فلا تحسبن هندًا لها الغدر سجية نفسن، كل غانية هند!

ويشير إليه حديث «**كلكم خطائون، وخير الخطائين التوابون**» «رواه أحمد وغيره عن أنس». وكما أنها - أي توبة - واجبة على الجميع، هي واجبة في كل حال، أي على الدوام، وذلك لعموم الأدلة، كقوله تعالى: **{وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا}** وذلك لأن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل عنها الأنبياء، والأخيار، كما ورد في القرآن والأخبار من خطاياهم وتوبتهم وبكائهم.

فإن خلا أحد في بعض الأحوال عن معصية والجوارح، فلا يخلو عن الهم بالذنوب في القلب، فإن خلا عن الهم، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه، فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن الطريق إلى ضده، وإنما يتفاوتون في مقادير النقصان لا في أصله(2).

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون:

وقال تعالى:

---

(2) انظر: «شرح عين العلم وزين الحلم» (جـ1 ص175) وهو مختصر من «الإحياء».

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [الحجرات: 11].

فبعد أن نهى الله المؤمنين عن السخرية بعضهم ببعض - رجالًا أو نساء - وعم لمز بعضهم لبعض بالطعن والتجريح، واعتبر القرآن من لمز إخوته المؤمنين كأنما لمز نفسه، فالمسلمون كنفس واحدة، كما نهى عن التنابز بالألقاب. فكل هذه الأمور تنقل الإنسان من درجة الإيمان إلى دركة الفسوق، فبعد أن كان يسمى مؤمنًا صار يسمى (فاسقًا) وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان.

ثم يقول تعالى: {وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}، وهذا دليل على وجوب التوبة، وإلا كان من الظالمين، والظالمون لا يفلحون {إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [يوسف: 23] ولا يحبهم الله: {وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ} [آل عمران: 57]: ولا يهديهم الله {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [المائدة: 51] وهم الذين لا ينجون من النار {وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا 71 ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا} [مريم: 71، 72].

آيات أخر:

ومن آيات القرآن: ما رغب في التوبة، وحث عليها، وبين فضائلها وآثارها، كما قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222].

دعوة المشركين والكفار إلى التوبة:

ومن آيات القرآن: ما دعا أهل الشرك إلى التوبة، وفتح لهم الباب

للانخراط في المجتمع المسلم، واكتساب أخوته، كما قال تعالى في سورة التوبة بعد الأمر بقتال المشركين الناكثين للعهود: {**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**} [التوبة: 5]، {**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ**} [التوبة: 11].

كما دعا النصارى إلى التوبة من قولهم بألوهية المسيح أو أنه جزء من ثلاثة أجزاء أو «أقانيم» تكون الإله!، وهو عبد من عباد الله، جرى عليه ما يجري على البشر، وكان داعيًا إلى عبادة الله وحده، يقول تعالى: {**لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ 72 لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ 73 أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**} [المائدة: 72 - 74].

بل فتح الله الكريم باب التوبة للكفرة الطغاة الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات، وألقوا بهم في أخاديد {**ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ 5 إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ 6 وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ**} [البروج: 5 - 7] فقد قال تعالى بعد أن ذكر قصة هؤلاء المؤمنين، وأنهم لم ينقموا منهم إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد، قال سبحانه: {**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ**} [البروج: 10] يقول الحسن البصري معلقًا على هذه الآية: انظر إلى هذا الكرم والجود: قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

حتى الردة - أي الكفر بعد الإيمان - تقبل التوبة، كما قال تعالى: {**كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا**

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ 86 أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ 87 خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ 88 إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ} [آل عمران: 86 - 89].

التوبة من النفاق:

وكما دعا القرآن إلى التوبة من الكفر الظاهر المعلن، دعا إلى التوبة من الكفر الباطن، المغلف بإيمان اللسان، وهو المعروف باسم «النفاق» وأهله هم «المنافقون» الذين يقولون: {ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ 8 يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ 9 فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا} [البقرة: 8 - 10].

والتوبة من هذا النفاق لا تكون بمجرد إعلان الإسلام، فهو معلن من قبل، بل بأوصاف أربعة ذكرها القرآن في سورة النساء، فبعد أن وصفهم في تلك السورة بما جلى حقيقتهم، وكشف مستور دخائلهم: من ولائهم للكافرين من دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة {بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا 138 ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا} [النساء: 138، 139].

ومن تربصهم بالمؤمنين، وإمساكهم العصا من الوسط بينهم وبين الكافرين. {ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} [النساء: 141].

ومن ذبذبتهم وخداعهم لله ولرسوله، وكسلهم عن أداء فرائضه وغفلتهم عن ذكره: {إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ

كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا 142 مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا} [النساء: 142، 143].

بعد أن جلى الله تعالى أوصاف المنافقين، لم يغلق الباب في وجوههم، بل فتح لهم باب التوبة بشروطها، وذلك في قوله تعالى: **{إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا 145 إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [النساء: 145، 146].

فمن تمام توبتهم أن يصلحوا ما أفسدوه بالنفاق، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالناس، وأن يخلصوا دينهم لله، حتى يخلصهم الله لدينه، وبذلك ينضمون إلى قافلة المؤمنين الصادقين.

وفي سورة أخرى يقول تعالى: **{يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ}** [التوبة: 74].

التوبة من الكبائر:

وكما ذكر القرآن التوبة من الشرك والنفاق، ذكر التوبة كذلك من كبائر الذنوب، مثل قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنى الذي جعله الله فاحشة وساء سبيلا، وقد عطف القرآن هاتين الكبيرتين على أكبر الكبائر، وهي الشرك، فقال سبحانه في وصف عباد الرحمن:

{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا 68 يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ

فِيهِۦ مُهَانًا 69 إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا} [الفرقان: 68 - 70].

ويلاحظ أن كثيرًا من الآيات تتحدث عن الإيمان بعد التوبة، وتعطفه عليها، كما في هذه الآية، في قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ}** [القصص: 67]، وقوله تعالى بعد أن ذكر جملة من رسله وأنبيائه وأتباعهم الأخيار الذين إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًا، ثم قال: **{فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا 59 إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا}** [مريم: 59 - 60].

وكما في قوله تعالى: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ}** [طه: 82]. فما سر هذا العطف: عطف الإيمان على التوبة؟ والذي يظهر لي أن الإيمان يخدش خدشًا كبيرًا باقتراف الكبائر، حتى إن بعض الأحاديث النبوية لتنفي الإيمان عن مقترف الكبيرة حين يقترفها - كما في حديث الصحيحين عن النبي صصص قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**».

لهذا كانت التوبة إعادة أو ترميمًا لهذا الإيمان.

التوبة من كتمان الحق:

ومن الذنوب الكبيرة التي أشار القرآن إلى ضرورة التوبة منها: ذنب كتمان الحق وعدم بيانه للناس، وهذا من ذنوب أهل العلم الذين يجب عليهم أن

يبلغوا رسالات الله، ويبينوا للناس حكم الله، ويقولوا الحق، ولا يكتموه عن الخلق، كما فعل أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى بقوله: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: 187].

وذلك أنهم كتموا البشارة بمحمد صصص في كتبهم، وحرفوا وبدلوا، من أجل متاع الدنيا، الذي سماه الله «ثمنًا قليلًا» كما قال تعالى: {قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ} [النساء: 77].

ويقول تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ 174 أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ} [البقرة: 174، 175].

فانظر إلى هذا الوعيد الهائل البالغ لهؤلاء الكاتمين، الذي يتضمن العذاب المادي: {مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ}، والعذاب المعنوي: {لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ} والخسران في صفقتهم، فقد {ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ} وما ذلك إلا لأنهم أضلوا عباد الله بكتمانهم الشهادة بالحق {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ} [البقرة: 140].

من أجل هذا كانت التوبة مطلوبة طلبًا مؤكدًا من هؤلاء حتى ينجوا من هذا العذاب، ومن لعنة الله ولعنة اللاعنين، يقول سبحانه: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ 159 إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [البقرة: 159، 160].

فاشترط في قبول توبتهم: أن يصلحوا ما أفسدوه، ويبينوا ما كتموه.

وإذا كان هذا جرم من كتم الحق، فما بالكم بجرم من «شوه الحق» وحاول أن يجعله في صورة الباطل، ليصد الناس عنه، ويزين لهم ضده، بلسانه أو بقلمه؟ لا ريب أن جرمه أعظم، وذنبه أشد خطرا، وهو ما يقع فيه كثير من الكاتبين والمؤلفين والصحفيين والإذاعيين والفنانين والخطباء، وأمثالهم ممن يصنعون عقول الناس، وميولهم واتجاهاتهم.

ولا تصح توبة هؤلاء بمجرد الندم والعزم، بل لابد أن «يصلحوا ويبينوا»، لقد أفسدوا كثيرًا من العقول والضمائر، وضللوا كثيرًا من الناس، فعليهم أن يزيلوا أسباب هذا الإفساد من كتب أو أشرطة أو «أفلام» ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فإن لم يستطيعوا برئوا منها ع لانية في الصحف وغيرها من وسائل الإعلام الممكنة، وعليهم أن يبينوا بوضوح: موقفهم الجديد ورجوعهم عما كانوا عليه من قبل، في شجاعة ويقين(3).

فضل التوبة والتائبين في القرآن:

وفي الحث على التوبة والترغيب فيها، جاء قول الله تعالى: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ}** [البقرة: 222]. واي درجة أعلى من درجة الحصول على حب رب العالمين؟

وجاء في وصف عباد الرحمن الذين شرفهم الله بالانتساب إليه، ووعدهم

(3) كما فعل ذلك الدكتور/«مصطفى محمود»، والأستاذ «خالد محمد خالد» وآخرون ممن هداهم الله.

الجنة يلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقامًا قوله سبحانه: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا 68 يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا 69 إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا}** [الفرقان: 68 - 70].

وأي فضل أعظم من أن يقبل التائب عند الله، حتى إنه ليبدل سيئاته حسنات؟

وفي بيان سعة مغفرة الله تعالى ورحمته للتائبين يقول جل شأنه: **{قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53].

فهذه الآية فتحت الباب على مصراعيه لكل مذنب وخطاء، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء، كما قال ﷺ: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم لتاب الله عليكم**»[4].

ومن فضائل التائبين: أن الله شغل ملائكته المقربين بالاستغفار لهم ودعاء الله تعالى أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم جنات النعيم وأن يقيهم السيئات، فهم في همومهم في الأرض، وحملة العرش مشغولون بهم في السموات، يقول تعالى: **{ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ 7 رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي**

(4) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (5235).

وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ 8 وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ} [غافر: 7 - 9].

وجاءت آيات وفيرة في كتاب الله تنبئ عن قبول توبة التائبين إذا صدقت توبتهم، بأساليب شتى، معللة بفضل الله تعالى ومغفرته ورحمته، التي لا تضيق بعاصٍ، وإن عظمت معصيته.

كما في قوله تعالى: {أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [التوبة: 104].

{وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ} [الشورى: 25].

وفي وصف ذاته سبحانه {غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ} [غافر: 3].

وخصوصًا من تاب وأصلح، وبعبارة أخرى: من تاب وعمل صالحًا كما في قوله في السارق والسارقة: {فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ} [المائدة: 39].

{كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} [الأنعام: 54].

{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ} [النحل: 119].

وجاء مدح الله تعالى باسمه «التواب» في أحد عشر موضعًا في القرآن، كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل: {وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [البقرة: 128].

وكما في قول موسى لبني إسرائيل بعد عبادتهم العجل: {فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [البقرة: 54].

وقال تعالى مخاطبًا رسوله: {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا} [النساء: 64].

توبات الأنبياء في القرآن:

وقد ذكر لنا القرآن توبات أنبيائه وأصفيائه مما وقعوا فيه من زلات، سارعوا بالندم عليها، والتوبة والاستغفار منها، عسى الله أن يغفرها لهم، ويتقبل توبتهم.

وقدوة التائبين هو أبو البشر آدم سسس، الذي خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، وأظهر فضله على الملائكة بعلمه، ولكن آدم الذي نجح في امتحان العلم والمعرفة، لم ينجح «من الدور الأول» في امتحان الإرادة، فقد ابتلاه الله بأول تكليف منه، وهو النهي عن الأكل من الشجرة: شجرة واحدة نهى عنها، وأبيح له أن يأكل من كل أشجار الجنة رغدًا حيث شاء، هو وزوجه، وهنا ضعفت إرادته، ونسي نهي ربه أمام وسوسة الشيطان وإغرائه، فأكل منها، ووقع في المعصية، ولكنه سرعان ما غسلها وطهر نفسه من آثارها، بالتوبة والاستغفار: {وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ} [طه: 121، 122].

وذكر لنا القرآن توبة موسى الذي اصطفاه برسالاته وبكلامه، وأنزل عليه التوراة، وجعله من أولي العزم من الرسل، وأيده بتسع آيات بينات، وقد وقع

منه ذنب قبل «الرسالة»، وهو الحمية لرجل من شيعته استغاثه على رجل من قوم فرعون، فوكزه موسى فقضى عليه: **{قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ 15 قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [القصص: 15، 16].

ووقع منه هفوة بعد «الرسالة»، حين: **{قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [الأعراف: 143].

وهنا قال الله له: **{يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ}** [الأعراف: 144].

ولما رجع موسى إلى قومه من مناجاته لربه أربعين ليلة، ووجد قومه قد عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، واتخذوه إلهًا، غضب غضبًا شديدًا، وقال: بئسما خلفتموني من بعدي! وألقى الألواح التي فيها التوراة كلام الله، ألقى بها في الأرض من الغضب، وفيها كلام الله، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه، وهو رسول مثله، وأخوه يقول له: يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إن القوم استضعفوني، وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين.

هنا أحس موسى سسس بما دفعه إليه الغضب، وإن كان غضبًا لله: **{قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ}** [الأعراف: 151].

وذكر لنا القرآن توبة نبي الله يونس سسس، حين دعا قومه إلى الله، فلم

يستجيبوا له، فلم يصبر عليهم، وغاضبهم، وهجرهم مفارقًا لهم، فأراد الله أن يبتليه بمحنة تطهره، وتبرز نفاسة معدنه، ومدى يقينه بربه، وصدقه معه، فقد ركب في سفينة، فلما كانت في عرض البحر، هاجت بها الرياح، ولعبت بها الأمواج، وظنوا أنهم أحيط بهم، وقال الركاب: لابد أن نخفف السفينة حتى لا تغرق بالجميع، فلابد من أن يلقوا ببعض من فيها في البحر ليفدى بقية الركاب، وتم ذلك بالقرعة والاستهام، وجاء السهم على يونس، ولم يكن بد من التسليم والرضوخ، فألقى في البحر، فالتقمه الحوت - أو النون - وهو مليم، أي ملوم على مغاضبته لقومه، ويأسه منهم، وتركه لهم، دون تكرار المحاولة، وهنا تجلى يقين يونس ذي النون - أو صاحب الحوت - فنادى في الظلمات التي يعانيها: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، بكلمات سجلها الكتاب الخالد، القرآن حين لخص قصته بقوله: **{وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ 87 فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}** [الأنبياء: 87، 88].

كلمات ثلاث قصار نادى بها يونس لها دلالاتها العظيمة:

الأولى: تدل على التوحيد - توحيد الألوهية. الذي به بعث الله الرسل وأنزل الكتب، وقامت به سوق الجنة والنار: **{لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ}**.

والثانية: تدل على التنزيه عن كل نقص، وهو معنى التسبيح الذي تقوم به السموات والأرض وكل المخلوقات، وإن من شيء إلا يسبح بحمده: **{سُبۡحَٰنَكَ}**.

والثالثة: تدل على الاعتراف بالذنب، والتقصير في حق الرب، وظلم النفس بالتفريط {**إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**} وهذا عنوان التوبة.

فلا عجب أن كان لهذه الكلمات الصادقة المخلصة أثرها العاجل الناجز في الدنيا قبل الآخرة {**فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**} [الأنبياء: 88].

وأصبحت هذه الكلمات بدلالاتها الثلاث: التوحيد والتنزيه والاعتراف: أسوة في الابتهال والدعاء عند الكرب، حتى جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه: «**دعوة أخي ذي النون: ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**».

وذكر لنا القرآن توبة داود سسس، فيما حكاه لنا في سورة «ص» حين جاءه خصمان، وتسوروا عليه المحراب، ففزع منهما، فقالا: {**لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ 22 إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ 23 قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ 24 فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ**} [ص: 22 - 25].

ترى ماذا نفهمه هنا من خطيئة داود في هذه القصة، التي ظن أنها كانت فتنة، وابتلاء له، فاستغفر ربه، وخر راكعًا وأناب:

الذي يبدو من ظاهر القصة: أنه سسس تسرع ولم يتثبت، واستجاب لداعي

الانفعال بمجرد أن سمع كلام أحد الخصمين، فبادر بالحكم على خصمه، دون أن يسمع منه، ويتيح له الفرصة للدفاع عن نفسه، وما ينبغي للقاضي العادل أن يتأثر بكلام أي خصم أو بمظهره، حتى يحقق ويدقق، ويسمع من كل الطراف، وتقوم لديه الحجة، وتتضح له المحجة، ولهذا قيل: إذا جاءك أحد الخصمين إحدى عينيه مقلوعة، فانتظر حتى ترى خصمه، فلعل عينيه مقلوعتان!.

ومن هنا جاء الأمر الإلهي بعد ذلك لداود ينهاه عن التأثر بالعواطف والأهواء في حكمه، وذلك في قوله تعالى: **{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ}** [ص: 26].

وهل كان هذا الخصمان رجلين من بني آدم حقيقة أو كان ملكين في صورة رجلين، عرضا عليه القضية امتحانًا واختبارًا، ثم لم يلبثا ان اختفيا، ولم يعرف لهما أثر؟.

أيًا كان أحد الاحتمالين، فالمغزى واحد، ولا مبرر لاعتبار هذا من ضرب المثل، وأنه تعريض بداود نفسه، في طمعه في امرأة جاره، كما تصوره الإسرائيليات المشوهة لصورة الرسل والأنبياء، حتى نزلت بهم إلى درك يترفع عنه كثير من عامة الناس، فكيف برجل سخر الله الجبال ليسبحن معه بالعشي والإشراق، وقال عنه في أول قصته: **{وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ}**، وقال في آخرها: **{وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ}**.

والآيات المتعلقة بالتوبة كثيرة في القرآن، وستأتي في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله.

التوبة في السنة النبوية:

وفي السنة النبوية نجد الأحاديث الوفير في الدعوة إلى التوبة، وبيان فضلها، والترغيب فيها، بأساليب شتى، حتى إن النبي صصص قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(5)، واكتفى ببعض ما ذكره الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» واذكر اهم ما انتقيته منها في كتابي «المنتقى من «الترغيب والترهيب».

عن أبي موسى ررر أن رسول الله صصص قال: «**إن الله ززز يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حى تطلع الشمس من مغربها**» رواه «مسلم والنسائي».

وعن أبي هريرة ررر أن رسول الله صصص قال: «**لو أخطأتم حتى تبلغ الشمس ثم تبتم؛ لتاب الله عليكم**» رواه ابن ماجه بإسناد جيد(6).

وعن جابر ررر قال سمعت رسول الله صصص يقول: «**من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله «الإنابة»** (7)، رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد (8).

وعن أبي سعيد الخدري ررر عن النبي صصص قال: «**مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته، وإن**

---

(5) رواه مسلم عن الأغر المزني.

(6) رواه ابن ماجه في «الزهد» (4248) وفي «الزوائد»: هذا إسناد حسن.

(7) «الإنابة» الرجوع، والمراد إلى الله باتوبة والاستغفار ونحوهما.

(8) ووافقه الذهبي (240/4)، وأورده الهيثمي جزءًا من حديث وقال: رواه «أحمد والبزار»، وإسناده حسن (203/10).

المؤمن يسهو ثم يرجع، فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين» رواه «ابن حبان» في صحيحه [9].

«الآخية» - بمد الهمزة، وكسر الخاء المعجمة، بعدها ياء مثناة تحت مشددة - هي: حبل يدفن في الأرض مثنيًا، ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة، وقيل: هو عود يعرض في الحائط تشد إليه الدابة.

وعن أنس ررر أن النبي صصص قال: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، كلهم من رواية علي بن مسعدة[10] وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[11].

وعن أبي هريرة ررر أنه سمع رسول الله صصص يقول: «**إن عبدًا أصاب ذنبًا، فقال: يا رب إني أذنبت ذنبًا فاغفره، فقال له ربه: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال: ثم أذنب ذنبًا آخر - وربما قال: ثم أذنب ذنبًا آخر - فقال: يا رب، إني أذنبت ذنبًا فاغفره لي، قال ربه: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدي فليعمل ما شاء**» رواه

---

(9) وهو في الموارد (2451)، ورواه أيضًا أحمد وأبو يعلى كما قال الهيثمي، ورجالهما رجال الصحيح، غير أبي سليمان الليثي، وعبد الله بن الوليد التميمي، وكلاهما ثقة (201/10).

(10) قال فيه ابن حجر في «التقريب»: صدوق له أوهام.

(11) رواه الترمذي في صفة القيامة (1، 25)، وابن ماجه في الزهد (4252)، والحاكم (244/4)، وقال الذهبي: على لين، وانتصر ابن القطان للحاكم كما في «الفيض» (17/5)، وحسنه الألباني في صحيح «الجامع الصغير» (5415).

البخاري، ومسلم.

قوله: «فليعمل ما شاء» معناه - والله أعلم -: أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا استغفر وتاب منه، ولم يعد إليه؛ بدليل قوله: **«ثم أصاب ذنبًا آخر»** فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء؛ لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره، لا أنه يذنب الذنب، فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده، فإن هذه توبة الكذابين.

وقد تقدم حديث **«إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نقطة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها»** الحديث.

وعن ابن عباس رررب قال: قالت قريش للنبي صصص: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا، فإن أصبح ذهبًا اتبعناك، فدعا ربه فأتاه جبريل سسس فقال: **«إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة»** قال: **«باب التوبة والرحمة»** رواه «الطبراني» ورواته رواة الصحيح[12].

وعن عبد الله بن عمر رررب عن النبي صصص قال: **«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»** رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث حسن[13].

---

(12) ونحوه قال الهيثمي (196/10) كما رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه «الذهبي» (240/4).

(13) رواه الترمذي في الدعوات (3531)، وابن ماجه في الزهد، وجعله من حديث عبد الله بن عمرو، كما رواه الحاكم أيضًا وصححه ووافقه الذهبي (257/4)، وأورده الهيثمي

«**يغرغر**» - بغينين معجمتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة - معناه: ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به.

وعن عبد الله بن مسعود ررر عن النبي صصصص قال: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**» رواه ابن ماجه، و«الطبراني»، كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ولم يسمع منه، ورواه «الطبراني» رواه «الصحيح»[14]، ورواه «ابن أبي الدنيا»، و«البيهقي» مرفوعًا أيضًا من حديث ابن عباس، وزاد: «**والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه**» وقد روى بهذه الزيادة موقوفًا، ولعله أشبه.

وعن عبد الله بن معقل [15] قال: دخلت أنا وأبي على ابن مسعود رضي الله عنه، فقال له أبي: سمعت النبي صصصص يقول: «**الندم توبة**»[16]؟ قال: نعم. رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد[17].

في «المجمع» جزءًا من حديث لأحد الصحابة وقال: رواه أحمد ورجاله ورجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن البيلماني وهو ثقة (197/10).

(14) رواه ابن ماجه في «الزهد» (4250)، وحسنه ابن حجر، باعتبار شواهده، كما في «المقاصد» و«الفيض» و«الكشف» وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (3008).

(15) في الأصل، وفي طبعة الشيخ منير، وكذا في المستدرك: عبد الله بن مغفل، وهو غلط ناسخ أو طابع، والصواب: عبد الله بن معقل بن مقرن المزني كما هو واضح من سند الحديث عند أحمد، فقد رواه في «مسند ابن مسعود» برقم (3568).

(16) أي الركن الأعظم في التوبة: الندم، كما في حديث: «**الحج عرفة**» فلا ينفي ذلك وجوب العزم والإقلاع في تحقق التوبة النصوح.

(17) ووافقه «الذهبي» (243/4)، وفات المنذري أن ينسبه إلى أحمد، كما أشرنا، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، كما رواه ابن ماجه أيضًا (4252).

وعن أبي هريرة ررر عن النبي صصص قال: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم**»(18). رواه مسلم، وغيره.

وعن عمران بن الحصين ررر أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صصص، وهي حبلى من الزنا، فقالت: يا رسول الله أصبت حدًا، فأقمه علي، فدعا نبي الله صصص وليها، فقال: «**أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها**»، ففعل، فأمر بها النبي صصص، فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ززز؟**» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري ررر أن نبي الله صصص قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، من يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء،**

---

(18) ذلك لأن من أسمائه سبحانه «الغفار» فلمن يغفر إذا كان كل عباده معصومين لا يذنبون؟!! فلا ينبغي لمذنب أن ييئس، مهما يكن ذنبه كبيرًا فإن مغفرة الله أكبر منه، وهو تعالى يقول: {**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**} [الزمر: 53].

فانطلق حتى إذا نصف الطريق، فأتاه ملك الموت[19] **فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما أدنى كان فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».**

وفي رواية: «**فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها**».

وفي رواية: «**فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له**».

وفي رواية: قال قتادة: قال الحسن: «**ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها**» رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه بنحوه.

وعن أبي هريرة ررر أن رسول الله صصص قال: «**قال الله ززز: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه أهرول**» رواه مسلم، واللفظ له، والبخاري بنحوه.

وعن شريح - هو ابن الحارث - قال: سمعت رجلًا من أصحاب النبي صصص يقول: قال النبي صصص: «**قال الله ززز: يا بن آدم قم إلي أمش**

---

(19) في نسخة: «**حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت**».

إليك، وامش إلي أهرول إليك» رواه «أحمد» بإسناد «صحيح»[20].

وعن أنس بن مالك ررر قال: قال رسول الله صصص: **«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة»** رواه البخاري، ومسلم وقد روياه أيضًا عن ابن مسعود بصيغة أوسع من هذه، وستأتي في موضعها.

وعن أبي ذر ررر قال: قال رسول الله صصص: **«من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وما بقى»** رواه «الطبراني» بإسناد «حسن»[21].

وعن عقبة بن عامر ررر قال: قال رسول الله صصص: **«إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى، فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض»** رواه «أحمد»، و«الطبراني» بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح[22].

وعن أبي هريرة ررر قال: إن رجلًا أصاب من امرأة قبلة - وفي رواية: جاء رجل إلى النبي صصص فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها[23]، فأنا هذا، فاقض في

(20) وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ورجال الصحيح غير شريح بن الحارث وهو ثقة (196/10، 197).

(21) وكذا قال الهيثمي (202/10).

(22) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح (201/10، 202).

(23) «دون أن أمسها» أراد: أصبت منها شيئًا غير الجماع، وفي نسخة: «أصبت منها دون

ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك - قال: ولم يرد عليه النبي صصص شيئًا، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي صصص رجلًا فدعاه، فتلا عليه هذه الآية **{وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ}** [هود: 114]، فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصة؟ قال: «**بل للناس كافة**» رواه مسلم، وغيره.

وعن أبي طويل شطب الممدود أنه أتى النبي صصص فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها[24]، فهل لذلك من توبة؟ قال: «**فهل أسلمت؟**» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: «**تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن**» قال: وغدراتي وفجراتي؟! قال: «**نعم**» قال: الله أكبر! فما زال يكبر حتى توارى. رواه «البزار»، و«الطبراني» واللفظ له، وإسناده جيد قوي[25].

هل تجب التوبة من الصغائر؟

وقد أثار العلامة ابن رجب الحنبلي في كتابه «جامع العلوم والحكم» سؤالًا مهمًا عن صغائر الذنوب: هل تجب التوبة منها كالكبائر أو لا؟ لأنها تقع مكفرة باجتناب الكبائر، لقوله تعالى: **{إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا}** [النساء: 31] قال: هذا مما اختلف الناس فيه.

- إلخ» بغير «ما».

(24) الحاجة: أراد به الصغير، والداجة: أراد به الكبير من الذنوب.

(25) وقال الهيثمي: (202/10): رواه الطبراني والبزار بنحوه، ورجال البزار رجال الصحيح، غير محمد بن هارون أبي نشيط، وهو ثقة.

فمنهم من أوجب التوبة منها، وهو قول أصحابنا وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم.

وقد أمر الله بالتوبة عقيب ذكر الصغائر والكبائر، فقال تعالى: **{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ 30 وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}** إلى قوله: **{وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [النور: 30 - 31].

وأمر بالتوبة من الصغائر بخصوصها في قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الحجرات: 11].

ومن الناس من لم يوجب التوبة منها، وحكى عن طائفة من المعتزلة.

ومن المتأخرين من قال: يجب أحد أمرين، إما التوبة منها، أو الإتيان ببعض المكفرات للذنوب من الحسنات.

وحكى ابن عطية في «تفسيره» في تكفير الصغائر بامتثال الفرائض واجتناب الكبائر قولين:

أحدهما: وحكاه عن جماعة من الفقهاء وأهل الحديث: أنه يقطع بتكفيرها بذلك قطعًا، لظاهر الآية والحديث.

والثاني: وحكاه عن الأصوليين: أنه لا يقطع بذلك، بل يحمل على غلبة الظن وقوة الرجاء، وهو في مشيئة الله ﻷ، إذ لو قطع بتكفيرها، لكانت الصغائر في حكم المباح الذي لا تبعة فيه، وذلك نقض لعرى الشريعة.

قلت: قد يقال: لا يقطع بتكفيرها، لأن أحاديث التكفير المطلقة بالأعمال جاءت مقيدة بتحسين العمل، كما ورد ذلك في الوضوء والصلاة، وحينئذ فلا يتحقق وجود حسن العمل الذي يوجب التكفير، وعلى هذا الاختلاف الذي ذكره ابن عطية ينبني الاختلاف في وجوب التوبة من الصغائر(26). ا هـ.

والحق أن التوبة مطلوبة من كل مكلف، وأن جميع المؤمنين مأمورون بالتوبة، كما ذكرته الآية الكريمة **{وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ}**.

وقد ذكرنا أن هناك من يتوب من الكبائر، وهناك من يتوب من البدع، وهناك من يتوب من صغائر الذنوب، ومن يتوب من الشبهات.

وهناك من يتوب من الغفلات.

وهناك من يتوب من الحالة التي كان عليها إذا ترقى إلى حال أحسن، وهذه هي توبة النبي صصص الذي كان يقول: «**يا أيها الناس توبو إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**».

وجوب التوبة على الفور:

وإذا كانت التوبة واجبة على المؤمنين جميعًا، فإن الإتيان بها على الفور: واجب آخر، فلا يجوز تأخيرها ولا التسويف بها، فإن ذلك خطر على قلب المتدين، إذا لم يسارع بالتطهر أولًا بأول، فيخشى أن تتراكم آثار الذنوب، واحدًا بعد الآخر، حتى تحدث سوادًا في القلب، أو زيفًا فيه. كما جاء في الحديث الذي رواه «أبو هريرة».

عن النبي صصص قال:

---

(26) «جامع العلوم والحكم» (446/1، 447) - طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت.

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نقطة فإن هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذاك الران الذي ذكر الله تعالى: **{كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ}**(27) [المطففين: 14].

وقال ابن القيم:

المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة! وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيئ آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة. أ.هـ.

وأخطر شيء على من وقع في المعصية هو: التسويف بمعنى أن يقول: سوف أرجع، سوف أتوب، ولا يفعل، ولهذا قيل: «سوف» جند من جنود إبليس! وقيل: أكثر أهل النار المسوفون. وقال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ 9 وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ 10 وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ}** [المنافقون: 9-11].

ومن فضائل المبادرة: أنها تعين المكلف على اقتلاع الذنب قبل أن يستفحل، ويرسخ في أرض القلب أصله، وتنتشر في الأعمال فروع، ويزداد كل يوم تشبثًا بالجذور، وتشعبًا في الفروع.

---

(27) رواه الترمذي (3331) وقال: حسن صحيح، وكذلك النسائي، وابن ماجه (4244)، وابن حبان في «صحيحه» كما في «الموارد» (2448)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (517/2).

وما مثل المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية، لا تنقلع إلا بمشقة شديدة جلية، فقال: أدخرها سنة، ثم أعود لأقتلعها، وهذا من حماقته وغبائه، فهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه! فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته، إذ عجز - مع قوته - عن مقاومة ضعيف، فكيف ينتظر الغلبة عليه، إذا ضعف هو في نفسه، وقوى الضعيف؟!.

وكثيرًا ما يسوف المسوفون، حتى يأتي الوقت الذي ترفض فيه التوبة، ولا يقبلها الله تعالى، وذلك حين يفقد الإنسان الاختيار، وتكون توبته توبة اضطرار، مثل توبة فرعون حينما أدركه الغرق، فقال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فكان الرد الإلهي: **{ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ}** [يونس: 91].

وإذا وصل المكلف إلى وقت معاينة الموت وحضوره فهنا لا تنفعه توبة، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا 17 وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** [النساء: 17، 18].

* * *

مقومات التوبة

التوبة النصوح.

مجرد الكلام باللسان ليس توبة.

التوبة كما شرحها الغزالي.

شرح العناصر المكونة لحقيقة التوبة.

الاستغفار.

شروط الاستغفار وآدابه.

* * *

مقومات التوبة

مادة «ت وب» في لغة العرب: تدل على الرجوع والعودة، والتوبة إلى الله ت عني: الرجوع إليه والعودة إلى رحابه والوقوف على بابه.

ذلك أن الأصل في الإنسان: أن يكون مع الله تعالى، موصول الحبال به، لا يبعد عنه، ولا يستغنى عنه سبحانه لحياة جسمه، كما لا يستغنى عنه لحياة روحه، بل لعل حاجته إليه في الآخرة أشد من حاجته إليه في الأولى، لأن حاجة جسمه تشاركه فيها البهيمة العجماء، أما حاجة الروح، فهي التي تميزه عن غيره من الأنعام والحيوانات، فقد خلقه الله تعالى على طبيعة مزدوجة، فيها: قبضة الطين، كما فيها: نفخة الروح، وهذه هي التي جعلته أهلًا لأن تسجد له الملائكة تكريمًا واحتفالًا بشأنه، كما قال تعالى: **{إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ 71 فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ}** [ص: 71، 72].

فلم يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم إلا بعد تسويته ونفخ الروح فيه:

فإذا أطاع الإنسان ربه فقد أعلى نفخة الروح على قبطة الطين، وبعبارة أخرى: فقد أعلى الجانب الروحي على الجانب المادي، أعلى الجانب الرباني الأعلى، على الجانب الطيني الأدني، وبهذا يسمو الإنسان ويرتقي، ويقرب من ربه سبحانه بقدر جهده في الارتقاء الروحي.

وإذا عصى الإنسان ربه، انعكست الآية، واستعلى الطين على الروح، وغلب الجانب المادي الأدنى على الجانب الرباني الأعلى، وبهذا يهبط

الإنسان ويتدنى، ومن ناحية أخرى يبعد عن الله تعالى بقدر إيغاله في الذنوب والمعاصي.

والتوبة تتيح له الفرصة لتدارك الفائت، وتصحيح المسار، فيرتقي بعد ما هبط، ويقترب من ربه بعد ما بعد، ويرجع إليه بعدما شرد.

التوبة النصوح:

والتوبة التي أمر بها المؤمنون هي «التوبة النصوح» التي جاء فيها قول الله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا...}** [التحريم: 8]، فما معنى التوبة النصوح؟

يقول الحافظ «ابن كثير» في تفسيره: أي توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب، وتجمعه، وتكفر عنه ما كان يتعاطاه من الدناءات.

فالنصوح: صيغة مبالغة من ناصح، كالشكور والصبور، مبالغة من: شاكر وصابر. ومادة (ن ص ح) في العربية تعني: الخلوص، يقال: نصح العسل، إذا خلا من الغش، وسلم من الشوائب الغريبة، فالنصح في التوبة، مثل النصح في العبادة، وفي المشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف في بيان حقيقة التوبة النصوح، حتى أوصلها الإمام القرطبي في تفسيره إلى ثلاثة وعشرين قولًا[28]، والحق أن مرجعها إلى شيء واحد، ولكن كل واحد منهم عبر عن حاله، أو عن عنصر أو أكثر

(28) انظر: «تفسير القرطبي» للآية الثامنة من سورة التحريم.

منها.

وذكر «ابن جرير» و«ابن كثير» وبان القيم عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب رررت: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إلأيه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وروى أحمد عن ابن مسعود مرفوعًا: التوبة من الذنب: أن يتوب منه ثم لا يعود فيه» وسنده ضعيف، والموقوف أصح كما قال ابن كثير.

وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على ألا يعود فيه.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك «أي يمتنع» بالبدن.

وقال سعيد بن المسيب: توبة نصوحًا: أن تنصحون بها أنفسكم، جعلها بمعنى ناصحة للتائب، مثل: ضروب، مبالغة في ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي نصح فيها التائب، ولم يشبها بغش، فهي إما بمعنى: منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى: مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل، أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان[29].

---

(29) «مدارج السالكين» (309/1، 310) طبعة السنة المحمدية بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، و«تفسير ابن كثير» (391/4، 392).

مجرد الكلام باللسان ليس توبة:

ليست التوبة قولًا باللسان، كما يفهم كثير من العوام، حين يذهب أحدهم إلى بعض شيوخ الدين، فيقول له: يا سيدي الشيخ توبني! فيقول الشيخ: ردد ورائي أو قل معي: تبت إلى الله، ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصي أبدًا، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام.

فإذا ردد هذه الكلمات وراء الشيخ خرج من عنده، وظن أنه قد تاب!

وهذه من الجهل القبيح من الطرفين: من العامي ومن الشيخ أيضًا، فالتوبة ليست مرجد كلام يلوكه اللسان، ولو كان كذلك ما كان أسهلها.

التوبة أمر أكبر من ذلك وأعمق وأصعب، إن عمل اللسان مطلوب فيها بعد أن تتحقق وتتأكد، ليعترف بالذنب ويسأل الله المغفرة، أما مجرد الاستغفار أو إعلان التوبة باللسان - دون عقد القلب - فهو توبة الكذابين، كما قال ذو النون المصري، وهو ما قالته السيدة رابعة: إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار! حتى قال بعضهم: استغفر الله من قولي: استغفر الله، أي باللسان من غير توبة وندم بالقلب!

أما حقيقة التوبة فهي عمل عقلي وقلبي وبدني، تبدأ بعمل العقل يتبعه عمل القلب، فيثمر عمل البدن، ولذا قال الحسن: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود إلى الذنب.

التوبة كما شرحها الغزالي:

والتوبة كما شرحها الإمام الغزالي في «إحيائه» معنى مركب من ثلاثة

عناصر: علم وحال وعمل. فالعلم: الأول، والحال: الثاني، والعمل: الثالث.

قال: والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث، إيجابًا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت.

قال ررر: أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه: ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه «ندما» فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسًا، وأما بالاستقال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر.

فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم: الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق، وانتفاء الشك عنه، واستيلائه على القلب، فيثمر «نور» هذا الإيمان مهما أشرق على القلب «نار» الندم، فيتألم بها القلب، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبًا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس، وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب، أو انحسار حجاب، فرأى محبوبه، وقد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال، والتلافي للماضي: ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم «التوبة» على مجموعها، وكثيرًا ما يطلق اسم التوبة على معنى «الندم» وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصة والسلام «الندم توبة[30]» إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعني: ثمرته ومثمره[31].اهـ.

شرح العناصر المكونة لحقيقة التوبة:

ومما ذكره «الغزالي» وغيره يتبين لنا: أن حقيقة التوبة التي أمر الله بها المؤمنين جميعًا لعلهم يفلحون، كما أمرهم أن تكون توبتهم إليه توبة نصوحا، إنما تتكون من عناصر أو مقومات ثلاثة، مرتبة بعضها على بعض، كما بين «أبو حامد» ححح.

1- العنصر المعرفي في التوبة:

أول هذه العناصر أو المقومات هو العنصر المعرفي الإدراكي، الذي يتجلى في معرفة الإنسان خطأه وخطيئته حين وقع في معصية ربه، وانكشاف الغشاوة عن عينيه حتى يبصر، والوقر عن أذنيه حتى يسمع، والظلمة عن عقله حتى يدرك، في لحظة من لحظات اليقظة والعودة إلى

---

(30) قال الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء» أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحيح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين. اهـ.

(31) «إحياء علوم الدين» (3/4، 4) ط - دار المعرفة - بيروت.

سلامة الفطرة، هنا يعرف جلال ربه، وعزة مقامه، وعظيم حقه، ززز، ويعرف تفريط نفسه في جنب الله تعالى، وطاعته لعدوه الشيطان، وخسرانه المبين في الآخرة والأولى، إن استمر سائرًا في ركاب إبليس وجنوده.

وهنا يحتاج الإنسان إلى تركيز فكره، وإعمال عقله، والتأمل العميق في نفسه وفيما حوله: في مبدئه، ومسيره، ومصيره، في معنى حياته، وفي موته وما بعد موته، في نعم الله المتتابعة عليه، وموقفه منها، في أن خير الله تعالى إليه نازل، وشره إلى الله صاعد، في تحبب الله إليه بنعمه وهو الغني عنه، وتبغضه إلى الله بالمعاصي، وهو أفقر شيء إليه، في أنه تعالى لم يغلق بابه عن عباده، وإن ظلموا وأسرفوا على أنفسهم، وأنه يناديهم دائمًا: **{لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا}** [الزمر: 53].

هذه الوقفة اليقظة مع النفس هي حجر الأساس في بنيان التوبة، فهي التي تدفع القلب إلى الندم، والإرادة إلى العزم، واللسان إلى الاستغفار، والبدن إلى الامتناع والإقلاع.

وهذا ما نبه عليه القرآن في قول الله تعالى: **{وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ}** [الحج: 54].

بهذا الترتيب الذي دل عليه العطف بحرف «الفاء».

فالأول هو العلم الذي يعرف به أربابه أن الحق من ربهم، فيترتب عليه أن يؤمنوا به، فالعلم إذن دليل الإيمان وقائده، ويترتب على الإيمان إخبات القلوب وخشوعها.

وقال تعالى في وصف المتقين: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**

ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ} [آل عمران: 135].

فهؤلاء ذكروا الله تعالى، فاسغفروه لذنوبهم، فالاستغفار إنما جاء ثمرة لذكر الله، والذكر هنا: إنما هو نوع من المعرفة، لأن المقصود به ليس هو ذكر اللسان، كما قد يتوهم بعض الناس، إنما هو الذكر ضد النسيان، وهو لون من ألوان المعرفة، كما قال تعالى: **{وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ}** [الكهف: 24].

إن العلم في الإسلام مقدم على أحوال النفس، وعلى أعمال الجسم، ولا غرو أن كانت أول آية نزلت في القرآن: **{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ}** [العلق: 1]. والقراءة هي مفتاح العلم.

وقال الإمام البخاري في صحيحه: باب: العلم قبل العمل، واستدل لذلك بقول الله تعالى: **{فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ}** محمد: 19]، فقدم الأمر بالعلم على الأمر بالاستغفار.

وقال القشيري في رسالته: أول التوبة: انتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق والإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه، بسمع قلبه، فإنه جاء في الخبر: «واعظ الله في قلب كل مسلم»(32) وفي الخبر: «وإن في البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن، وإذا فسدت فسد جميع البدن ألا وهي القلب»(33) فإذا فكر بقلبه في سوء ما يصنعه، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال: سنح في قلبه إرادة التوبة، والإقلاع عن قبيح المعاملات، فيمده الحق سبحانه

(32) رواه أحمد عن النواس بن سمعان.

(33) متفق عليه عن النعمان بن بشير.

بتصحيح العزيمة، والأخذ في جميل الرجعي، والتأهب لأسباب التوب[34].

2- العنصر الوجداني الإرادي:

والعنصر الثاني في التوبة: هو عنصر نفسي، يتعلق بالوجدان والإرادة، وبتعبير آخر: بالانفعال والنزوع.

في هذا العنصر: ما يتصل بالماضي، وما يتصل بالمستقبل.

أ- الندم اللاذع:

فما يتصل بالماضي، فهو المعبر عنه بـ«الندم» وفيه ورد الحديث: «الندم توبة» وذلك لأنه الركن الأهم في التوبة، كما في حديث «الحج عرفة» لأنه الركن الأهم في الحج، حتى نقل القشيري عن بعض أهل التحقيق أنه قال: «يكفي الندم في تحقيق التوبة؛ لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين «العزم والإقلاع» فإنه يستحيل أن يكون نادمًا على ما هو مصر على فعله أو عازم على الإتيان بمثله».

والندم: شعور أو انفعال أو توتر عاطفي، هو عبارة عن حسرة لما فرط من الإنسان من ذنوب في حق ربه، وفي حق خلقه، وفي حق نفسه، هذه الحسرة أشبه بالنار التي تلذع القلب لذعا، بل قد تكويه كيّا، كلما تذكر ذنبه، وتفريطه، وتذكر حق ربه تعالى عليه. إنها حالة «احتراق داخلي» عبر عنه بعض الصوفية بقوله في تعريف التوبة: ذوبان الحشا لما سبق من الخطا، وقال آخر: هي نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب!.

---

(34) «الرسالة القشيرية» بتحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف (ج254/1، 255).

وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الجانب النفسي الانفعال لبعض التائبين، فأبدع التصوير، وأحسن التعبير، وذلك في قصة الصحابة الثلاثة الذين خلفوا، ولم ينهضوا مع رسول الله في غزوة العسرة، غزوة تبوك التي كانت أول لقاء للرسول الكريم مع أقوى دولة في الأرض: دولة الروم، ولم يقدموا للرسول أعذارًا كاذبة، كما فعل بعض المنافقين، فأمر النبي صصص بمقاطعتهم، فبلغ بهم الندم والأسى مبلغًا عظيمًا، عبر عنه القرآن بقوله: **{وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}** [التوبة: 118].

ولهذا قال ذو النون: حقيقة التوبة: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك؛ كما أخبر الله في كتابه: **{وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُم}** الآية.

ومن مظاهر هذا الندم: الاعتراف بالذنب، وعدم الفرار من المسؤولية عنه، وطلب الصفح والمغفرة عنه من الله تعالى.

كما رأينا في قصة «آدم» بعد أكله هو وزوجه من الشجرة: **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23].

وكما رأينا في قصة «نوح» حين شفع إلى ربه في ولده الكافر، فكان الرد الإلهي: **{يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ}** [هود: 46].

هنا أحس «نوح» سسس بخطئه، وندم عليه، وقال: **{رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ**

أَسۡـَٔلۡكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ} [هود: 47].

وكما رأينا في قصة «موسى»، حين وكز الرجل القبطي فقضى عليه، {قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ 15 قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي} [القصص: 15، 16].

وكما رأينا في قصة ذي النون «يونس»: {إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [الأنبياء: 87].

رغم أن هذه الذنوب التي وقعت من هؤلاء الرسل لا تعدو أن تكون من صغائر المعاصي، وخصوصًا إذا لاحظنا الظروف والملابسات التي وقعت فيها، فسنجدها ظروفًا مخففة، ولكنهم - عليهم صلوات الله - لرهافة حسهم، ويقظة ضمائرهم، وقوة شعورهم بحق ربهم، استعظموا هذه الذنوب، وأقروا بأنهم ظلموا بها أنفسهم، فسارعوا إلى استغفار ربهم، إنه هو الغفور الرحيم.

ب- العزم الجازم:

وإذا كان الندم في التوبة يتعلق بالماضي وما وقع فيه من تفريط، فهناك أمر يتعلق بالمستقبل، وما يتوقع فيه من تلاف للتفريط، وتعويض بالإصلاح، وذلك بالعزم الجازم على ترك المعصية التي يتوب منها، تركًا كليًا لا رجعة فيه بحال، كما لا يرجع اللبن إلى الضرع إذا خرج منه، وهذا أمر مرده إلى الإرادة، ويجب أن تكون إرادة قوية مصممة، لا إرادة متراخية واهنة، تقدم رجلًا، وتؤخر أخرى، تعزم اليوم، وتفسخ في الغد، أو تتوب في الصباح، وتتراجع في المساء!

والمهم في هذا العزم: أن يكون قويًا مصممًا جازمًا ساعة التوبة، بحيث لا يشعر لحظتها بأي تردد أو حنين إلى المعصية، أو تفكير في إمكان معاودتها مرة أخرى. ولا ينقض التوبة: أن تضعف إرادة التائب بعد فترة، ويغلبه هواه، ويغره شيطانه، فتزل قدمه، ويسقط في حفرة المعصية من جديد.

وهنا يطلب منه أن يبادر بالتوبة، فيندم ويعزم من جديد، ولا يقنط من قبول توبته إذا كانت صادقة، فقد قال تعالى: **{فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا}** [الإسراء: 25]، والأواب: كثير الأوبة إلى الله تعالى، كلما أذنب ذنبًا علم أن له ربًا يغفر الذنوب ولا يبالي، فرجع إليه واستغفره، فغفر له.

قال الإمام «ابن كثير»: فأما إذا جزم بالتوبة، وصمم عليها، فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها».

قال «ابن كثير»: وهل من شرط التوبة النصوح: الاستمرار على ذلك إلى الممات، كما تقدم في الحديث وفي الأثر: ثم لا يعود فيه أبدًا، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك، لا يكون ضارًا في تكفير ما تقدم، لعموم قوله ﷺ: «التوبة تجب ما قبلها»[35]؟.

وناقش ذلك ابن القيم في «المدارج»، وذكر الرأيين: رأي من يشترط عدم معاودة الذنب بحال، وقال: متى عاد إلى الذنب، تبينا أن توبته كانت باطلة غير صحيحة، ورأى الأكثرين، وهو أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة

---

(35) «تفسير ابن كثير» (392/4) ط. الحلبي.

تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته، فإذا عاوده مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده، صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل التوبة المتقدمة.

قال: والمسألة مبنية على أصل، وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مصرًا؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية، فلا يعود إليه إثمه، وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان:

فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول، لفساد التوبة، وبطلانها بالمعاودة قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة، كما ثبت في الصحيح عن النبي صصص أنه قال «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**» فهذا حال من أسلم واساء في إسلامه، ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام، فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما، فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق، كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قالوا: ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه، قالوا: والتوبة واجبة وجوبًا مضيقًا مدى العمر،

فوقتها مدة العمر، إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات: بطل ما تقدم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.

قالوا: ويدل على هذا: الحديث الصحيح، وهو قوله صصص «**إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفرًا موجبًا للخلود، أو معصية موجبة للدخول، فإنه لم يقل «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنما أخبر: أنه يعمل بعمل يوجب له النار، وفي بعض السنن «**إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخل النار**» فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية، والأعمال بالخواتيم.

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة - بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة ما لم يعمله وكأنه لم يكن. فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال. فإن الكفر له شأن آخر. ولهذا يحبط جميع الحسنات. ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت

غيرها من الحسنات. وهذا باطل قطعًا. وهو يشبه مذهب «الخوارج» المكفرين بالذنب. و«المعتزلة» المخلدين في النار بالكبيرة، التي تقدمها الألوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار. ولكن «الخوارج» كفروهم، و«المعتزلة» فسقوهم. وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام. مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا}** [النساء: 40].

قالوا: وقد ذكر «الإمام أحمد» في مسنده مرفوعًا إلى النبي صصص «**إن الله يحب العبد المفتن التواب**»(36).

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوبًا للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالى: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ}** [آل عمران: 135] والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها، لا شرط في صحة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة، فإن تلك عبادة واحدة، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها، وأما التوبة: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة

(36) سنده ضعيف جدًا.

تخصه، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل، كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر، فهل يكون ما أفطره منه مبطلًا لأجر ما صامه منه؟.

بل نظير من صلى ولم يصم، أو زكى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا لله مبغوضًا له من وجهين أيضًا، بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله، كما قال تعالى: **{هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ}** [آل عمران: 167] وقال، **{وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ}** [يوسف: 106] أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر، فهؤلاء مستحقون للوعد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يغفر، وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها

ودخولهم الجنة، لما قدم بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاود الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ}** [فصلت: 46]. اهـ[37].

3 - الجانب العملي في التوبة:

وكما أن في التوبة جانبًا أو عنصرًا معرفيًا: يتمثل في العلم بمقام الله تعالى وعظيم حقه على عباده، وسابغ نعمه عليهم من ناحية، والعلم بأضرار المعاصي والخطايا وآثارها في الدنيا والآخرة، ووقوفها حجابًا بين الإنسان وربه، وحاجزًا دون وصوله إلى الفلاح والفوز المنشود **{فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ}** [آل عمران: 185].

وفي التوبة كذلك جانب أو عنصر قلبي وجداني إرادي، يتمثل في نار الندم المحرقة لحطب الذنوب، ودموع الأسف الغاسلة لأوحال الخطايا، ونور العزيمة الصادقة المصممة على عدم العودة إلى المعصية المتوب منها مهما تكن المغريات بها والدوافع إليها.

فإن في التوبة أيضًا جانبًا أو عنصرًا عمليًا لابد منه، لتتم به حقيقة التوبة، وتؤتي ثمارها في النفس وفي الحياة.

وهذا الجانب العملي له أصل، يتفرع منه فرعان، وربما فروع.

---

(37) «المدارج» (ج1/ 276 - 282).

أ- الإقلاع عن المعصية في الحال:

أما الأصل فهو: الترك والإقلاع عن المعصية في الحال، ولا معنى للتوبة إذا ظل المرء مقيمًا على معصيته، لم يفارقها ولم يهجرها، فمم تاب إذن؟! وإنما اعتبر الترك عملًا، لأنه كف النفس عما تشتهيه من المعصية إلى ما يجب عليها من الطاعة، ولا ريب أن هذا الكف من هذه الوجهة عمل ورياضة وجهاد في سبيل الله، وقد قال تعالى: **{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا}** [العنكبوت: 69].

ب- الاستغفار:

وأما الفرعان لهذا الأصل فأولهما: «الاستغفار» بمعنى طلب المغفرة والعفو من الله تعالى، كما قال الأب الأول: «آدم»، والأم الأولى: حواء، بعد أن أكلا من الشجرة: **{رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23].

وكل تائب في إمس الحاجة إلى الاستغفار، كما دعا إلى ذلك القرآن والسنة وبينه السلف الصالحون.

ونظرًا لأهمية الاستغفار، وتكرر الأمر به، والحث عليه، في القرآن والحديث، سنفرد له فصلًا مستقلًا للحديث عنه.

جـ- تغيير البيئة والأصحاب:

والفرع الثاني: تغيير البيئة الاجتماعية المتلطخة بالقاذورات، التي كان يعيش فيها في عهد المعصية والانحراف، والبحث عن بيئة نظيفة طاهرة، سليمة من الأمراض المعدية، ونعني بهذه الأمراض: أمراض الخطايا

والذنوب والانحرافات، فإنها أشد خطرًا من أمراض الأبدان، وأسرع تأثيرًا منها.

وإذا كان تأثير الأمراض العضوية المعدية خطرًا على الفرد وحده، فإن خطر الانحراف والمعاصي على الفرد والمجتمع كله، وهو ليس خطرًا على الماديات والمحسات وحدها، بل على المعنويات والأخلاقيات أيضًا، وهي ليست خطرًا على الدنيا وحدها، بل هي خطر على الدنيا والآخرة جميعًا.

ومعنى هذا: أن على التائب أن يهجر «أصدقاء السوء» الذين أغروه بالمعصية، وجروا إليها رجله، حتى سقط فيما سقطوا فيه منها، فشرب الخمر، أو لعب القمار، أو تعاطي المخدرات، أو تاجر في المحرمات، أو قبل الرشوة، أو وقع في حبائل النساء، أو تجسس أو تعامل مع الأعداء، أو أضاع الصلوات، واتبع الشهوات... إلى غير ذلك من صنوف الخطاي... فلابد له أن يستبدل بهؤلاء الأصحاب الأشرار، أصحابًا أخيارًا أطهارًا، مجرد رؤيتهم تذكر بالله، وكلامهم يرشد إلى طاعة الله، وأعمالهم تهدي إلى طريق الله.

لابد للتائب أن يدع مصاحبة «نافخ الكير» إلى مصاحبة «حامل المسك» كما أرشدنا إلى ذلك المعلم الأول رسول الله صصص.

إن أثر الأصدقاء والأصحاب في الإنسان: أثر عميق، عبر عنه الحكماء والشعراء من قديم، حتى قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل، وسل عن   فكل قرين بالمقارن يقتدي!

وقال الآخر:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنها   تعدي، كما يعدي السليم الأجرب!

والأصدقاء نوعان: صديق يأخذ بيدك إلى الجنة، والآخر يجرك إلى النار جرًّا، وقد حكى القرآن لنا عن خطر هذا الصنف الأخير في الإضلال والصد عن سبيل الله، وقد لا يعرف ذلك ضحاياهم إلا في الآخرة، حين ينكشف الغطاء، ويرى الناس الحقائق مجردة، يقول تعالى: **{وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا 27 يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا 28 لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا}** [الفرقان: 27 - 29].

وهكذا نرى كل الأصدقاء في الدنيا أعداء يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويبرأ بعضهم من بعض، ويقول كل منهم لصاحبه: أنت الذي أضللتني وأغويتني، إلا صنفًا واحدًا من الأصدقاء والأخلاء، وهم أهل التقوى، الذين يخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب. يقول تعالى: **{ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ}** [الزخرف: 67].

ومن هنا نبه بعض علماء السلوك من السلف إلى تغيير الأصدقاء، حين قال: التوبة: ندم بالجنان، وعزم على ترك العصيان، واستغفار باللسان، وإقلاع بالأبدان، وهجر سيء الخلان.

وهذه نظرة تربوية صحيحة ومجربة، وهو ما نبه عليه القشيري ونصح به التائب أن يبدأ به: هجران إخوان السوء، فهم الذين يحملونه على رد القصد إلى التوبة، ويشوشون عليه صحة عزمه على الطاعة[38].

يؤيد هذا ما جاء في الحديث الصحيح: «**حديث الرجل الذي قتل مائة**

---

(38) «الرسالة» للقشيري (255/1).

نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، من يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء..» الحديث(39).

د- اتباع السيئة الحسنة:

وهنا فرع آخر مكمل لهذين الفرعين، ومؤكد للتوبة، وهو: اتباع السيئة الحسنة لتمحو أثرها وتطهر نجسها، وهو ما أمر به رسول الله صصص «أبا ذر» ررر حين أوصاه تلك الوصية الجامعة، فقال: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»(40).

والمراد: أن يبادر المسلم الذي صدرت منه المعصية أن يلحقها بطاعة، من صلاة أو صدقة، أو صيام، أو فعل خير أو استغفار أو ذكر وتسبيح، إلى غير ذلك من ألوان الحسنات، كما قال تعالى: **{وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ}** [هود: 114].

قال ابن العربي: والحسنة تمحو السيئة، سواء كانت قبلها أم بعدها، وكونها بعدها أولى، إذ الأفعال تصدر عن القلوب، وتتأثر بها، فإذا فعل سيئة فقد تمكن في القلب اختيارها، فإذا اتبعها حسنة، نشأت عن اختيار في القلب،

---

(39) الحديث متفق عليه عن أبي سعيد الخدري، ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب»، انظر: «المنتقى» (1936)، وقد تقدم بتمامه في صفحة (33).

(40) رواه أحمد والترمذي عن أبي ذر وقال الترمذي: حسن صحيح، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والبيهقي في «الشعب» ورواه أيضًا أحمد والترمذي والبيهقي والطبراني عن معاذ، وقال «الذهبي» في «المهذب»: إسناده حسن. «الفيض» (121/1).

فتمحو ذلك، وظاهر قوله «تمحها»: أنها تزال حقيقة من الصحيفة، وقيل: عبر به عن ترك المؤاخذة[41].

وأفضل ما تكون الحسنة بعد السيئة إذا كانت من جنسها.

فمن كانت سيئته الغيبة لشخص معين، فالحسنة ينبغي إن تكون مدحه أمام من اغتابه عنده، أو الاستغفار له من الله.

ومن كانت سيئته السخرية بالناس، فلتكن حسنته توقيرهم، وإكرامهم وذكرهم بكل خير.

ومن كانت سيئته قراءة كتب السوء، فلتكن حسنته قراءة القرآن، وكتب الحديث، وعلوم الإسلام.

ومن كانت سيئته عقوق الوالدين، فلتكن حسنته المبالغة في برهما وإكرامهما، والإحسان إليهما، وخصوصًا في حالة الكبر.

ومن كانت سيئته قطع الرحم، والإساءة إلى ذوي القربى، فلتكن حسنته الحرص على صلتهم، وإن قطعوا، وإعطائهم، وإن حرموا.

ومن كانت سيئته الجلوس في مجالس المجون واللهو المحرم، فلتكن حسنته الجلوس في مجالس الخير والذكر والعلم النافع.

ومن كانت سيئته العمل في الصحافة المعادية للإسلام ودعاته، فلتكن حسنته العمل في الصحافة المضادة لها، بنشر الخبر الصادق، والرأي السديد.

ومن كانت سيئته تأليف الكتب المضللة، الداعية إلى المنكر في القول

(41) انظر: «فيض القدير» (120/1).

والعمل، والمحرضة على إثارة الشبهات في الفكر، والشهوات في السلوك، فلتكن حسنته تأليف كتب مناقضة لها في الاتجاه، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.

ومن كانت سيئته إشاعة الأغاني الخليعة، وإثارة الغرائز الهاجعة بشتى المثيرات، فلتكن حسنته نشر العفة، والدعوة إلى الحياء والإحصان.

ومن كانت سيئته ظلم الناس، والعدوان على الضعفاء، وعلى حرماتهم وحقوقهم المادية والأدبية، فلتكن حسنته الحرص على إقامة العدل، وإنصاف المظلومين، والوقوف بجانب المستضعفين والدفاع عنهم ورد ما امكن من الحقوق إليهم.

ومن كانت سيئته السير في ركاب الطغاة المستكبرين من الحكام وتصديقهم في كذبهم، وإعانتهم على ظلمهم لشعوبهم، كانت حسنته مقاومة هؤلاء الظلمة ما استطاع، وكشف المستور من مساوئ هؤلاء أمام الجماهير، وفضح مخازيهم وسرقاتهم، حتى ينفض الناس عنهم.

وهكذا ينبغي أن تكون الحسنة التي يمحو بها التائب سيئته ما استطاع: مناقضة لها، مزيلة لأثرها، مطهرة للنفس من رواسبها، وذلك بسلوك طريق المضادة كما بين ذلك «الإمام الغزالي»؛ فإنما يعالج المرض بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات. فكذا ينبغي أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها ما استطاع، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من

العبادات، وإن كان ذلك أيضًا مؤثرًا في المحو.

هذا، وسلوك طريق المضادة في التكفير والمحو: مشهود له في الشرع حيث اوجب القرآن الكريم في كفارة القتل الخطأ: تحرير رقبة، وذلك أن الرق نوع من الموت الأدبي بفقد الحرية، وفي عتق الرقيق وتحرير رقبته إحياء معنوي له، فحيث لا يمكن الإنسان أحياء نفس حسا، فليحيها معنى، وذلك بالتحرير.

4 - أن تكون التوبة لله:

وهناك ركن مطلوب في التوبة، وإن لم يذكره الكثيرون، أراه ملحوظًا، وإن لم يكن ملفوظًا، وهو: أن يكون الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم معاودته كلها من أجل الله تعالى، رغبة في ثوابه، وخشية من عقابه.

فمن أقلع عن شرب الخمر، لأن الطبيب حذره من شربها، وانها ستودي بصحته، فتركها من أجل ذلك لم يعد تائبًا، ولم يكن تركه توبة.

ومن أقلع عن الزنى، لأنه أصيب بمرض «الإيدز» أو خشي الإصابة به، أو غير ذلك من الأمراض التناسلية، فخاف على نفسه، وهجر الزنى، لم يكن ذلك توبة شرعية.

ومن أقلع عن الاتجار بالمخدرات، خوفًا من مطاردة الشرطة، ومن عقوبة الإعدام التي تنتظره، لم يكن تائبًا، ولا إقلاعه توبة.

ومن خسر ماله في القمار، فأقلع عنه، لإفلاسه وضياع ثروته، لم يكن ذلك توبة منه، ولم يدخل هو في زمرة التائبين.

ومن عق أباه، فحرمه من ماله وميراثه، فندم على عقوقه، لم يكن ندمه هذا توبة، ولا جزءًا منها، لأنه ندم على الدنيا، لا على معصية الله جل شأنه.

وقد رأينا القرآن الكريم يحكي لنا قصة ابني آدم بالحق، إذ قتل الشرير منهما أخاه الطيب، وقد حمل جثته مدة طويلة، ولم يعرف كيف يواريها، إذ كان هذا أول ميت في تاريخ البشرية: **{فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ}** [المائدة: 31].

فندم هذا الأخ الشرير ليس لمعصيته لربه، وقتله لأخيه، بل لحمله تلك المدة، وعجزه أن يعرف طريقة لدفنه، ولذلك لم يشفع له هذا الندم.

ولكن إذا حركت مصائب الدنيا وخسائرها بواعث الإيمان في قلب الإنسان، وجعلته يراجع نفسه، ويتذكر آخرته، فتاب عنه ذلك، فهو من المقبولين إن شاء الله.

* * *

الاستغفار

الاستغفار: طلب المغفرة، أي محو الذنب وإزالة أثره، ووقاية شره، قال ابن القيم: وحقيقة المغفرة: وقاية شر الذنب ومنه: المغفر لما يقي الرأس من الأذى(42)، وإنما تطلب المغفرة من الله ززز، فإن من أسمائه تعالى «الغفور»، و«الغفار» و«غافر الذنب» ومن صفاته أنه: **{يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا}** [الزمر: 53].

والقرآن يذكر لنا أن رسل الله تعالى إلى الأمم قد أمروهم بالاستغفار. إما مفردًا أو مقرونًا بالتوبة، كما ذكر تعالى عن نوح ودعوته لقومه: **{فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا 10 يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا 11 وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا}** [نوح: 10 - 12].

وكما ذكر سبحانه عن هود ودعوته إلى قومه عاد، حيث قال: **{وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ}** [هود: 52].

وكذلك قال صالح لقومه ثمود: **{يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ}** [هود: 61].

وكذا قال شعيب لقومه أهل مدين: **{وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ}** [هود: 90].

---

(42) «مدارج السالكين» (ج 308/1).

وقال الله تعالى لخاتم رسله محمد صصص: {قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ} [فصلت: 6].

والاستغفار الحقيقي يتضمن التوبة، كما أن التوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الانفراد.

وأما إذا اقترنا في سياق واحد، كما في قوله: «استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» فالاستغفار يعني: طلب وقاية شر ما مضى من ذنوبه، والتوبة تعني: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

قال «الإمام ابن القيم»: فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة؛ فالمغفرة: أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده(43).

وحاجة الإنسان إلى مغفرة الله: حاجة أساسية، لأن نعم الله عليه لا تحصى، وتقصيره في حقه تعالى لا ينكر، ولو قال امرؤ من الناس: أنا قد قمت لله بكل حقه، ولم أقصر في مثقال ذرة منه، لكان هذا نفسه أول الذنوب، لأنه العجب بعينه، والغرور القاتل، لهذا كان كل الناس في حاجة إلى المغفرة، وفي هذا قال تعالى: {وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا

---

(43) «مدراج السالكين» (308/1، 309).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ} [آل عمران: 133] فجعل المسارعة مطلوبة إلى المغفرة قبل الجنة، ومثلها قوله تعالى: **{سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ}** [الحديد: 21].

وقال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ 10 تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ 11 يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ}** [الصف: 10 - 12].فكان ربح تجارتهم: المغفرة، ثم إدخال الجنات.

ومن حاجة الإنسان إلى المغفرة، تنشأ حاجته إلى الاستغفار، فهو لا يستغني عنه أبدًا، لا ليلًا ولا نهارًا، كما لا يستغني عن الطعام والشراب، كما قال تعالى: في الحديث القدسي الشهير الذي رواه «النبي» عن ربه ززز: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»(44).

وقال صصص: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(45).

ولهذا وصف القرآن خيار عباد الله بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى، وخصوصًا في ساعات الأسحار، وعند الوقوع في أوحال الذنوب.

وصف الله تعالى أهل التقوى الذين يستحقون جنته ورضوانه، فقال:

---

(44) رواه مسلم من حديث أبي ذر.

(45) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة. «صحيح الجامع الصغير» (7074).

{**لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ 15 ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ 16 ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ**} [آل عمران: 15 - 17].

وفي نفس السورة حدثنا الله عن الربانيين الذين قتل منهم من قتل في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا فقال: {**وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ**} [آل عمران: 147]. فقبل أن يسألوا الله التثبيت والنصر، سألوه المغفرة لذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، وفي هذا اتهام لأنفسهم بالتفريط بدل أن يتهموا الله تعالى بأنه خذلهم!!.

وفي السورة أيضًا حديث عن «أولي الألباب» الذين دعوا ربهم بجملة أدعية، فكان فيها: {**رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ**} [آل عمران: 193].

وفي سورة أخرى أثنى الله على المتقين المحسنين من أوليائه، فقال: {**إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ 15 ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ 16 كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ 17 وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ**} [الذاريات: 15 - 18].

قال الحسن: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر.

فيا عجبًا! يقضون الليل في عبادة وصلاة، ثم يأتي السحر فيستغفرون!

كأنهم لازالوا يشعرون بالتقصير.

قال «ابن كثير»: وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة عن رسول الله صصص أنه قال: «**إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطي سؤله؟ حتى يطلع الفجر**».

وأوجب ما يكون الاستغفار عند الوقوع في مهاوي المعاصي وأرجاس الذنوب، ومن ذا الذي يسلم من ذلك؟ وهنا يجد في الاستغفار أداة يتعلق بها لتنهضه من عثرته، ومغسلة يتطهر بها من أدران ذنبه، فقد ذكر تعالى من أوصاف المتقين في كتابه: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ}** [آل عمران: 135]، وقال تعالى: **{وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [النساء: 110].

ولقد مدح الله أنبياءه في القرآن بالاستغفار، فهم أسرع الناس إليه، وأحرصهم عليه.

في قصة آدم أبي البشر لجأ إلى الاستغفار حين وسوس إليه الشيطان حتى أكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها هو وزجه، فسرعان ما قرع باب الله مستغفرًا منيبًاإليه: **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23].

ونوح شيخ المرسلين عليه السلام يدعو ربه مستغفرًا له ولوالديه، ولكل من له حق عليه، وللمؤمنين والمؤمنات: **{رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ**

بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ} [نوح: 28].

وإبراهيم يقول: {رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ} [إبراهيم: 41].

{رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ 4 رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ} [الممتحنة: 4، 5].

وموسى يتورط قبل بعثته في قتل خطأ فلاذ بجناب ربه: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} [القصص: 16].

وفي مقام آخر قال: {إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ} [الأعراف: 155].

وقال سبحانه في قصة داود: {وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ} [ص: 24].

وقال في قصة سليمان: {قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ} [ص: 35].

ومحمد عيه الصلاة والسلام أمر بالاستغفار في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى في القرآن المكي: {فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ} [غافر: 55].

وفي القرآن المدني أمره الله بالاستغفار في قوله تعالى: {وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا} [النساء: 106].

كما أمره الله تعالى بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فقال: {فَٱعۡلَمۡ

أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ} [محمد: 19].

وقال تعالى: **{إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ 1 وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا 2 فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا}** [النصر: 1 - 3].

وهذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن، أي أنها نزلت في أواخر حياته صصص، وبعد نزول قوله تعالى في سورة «الفتح» **{لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ}** [الفتح: 2]، فهذه نزلت في السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية المعروف، الذي سماه الله تعالى فتحًا مبينًا.

ومع هذا أمر بالاستغفار، وكان أكثر الناس استغفارًا لربه، كان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يقول: رب اغفر لي وتب علي. روى «النسائي» عن «ابن عمر أنه سمع النبي صصص يقول: «**استغفر الله الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم، وأتوب إليه**» في المجلس قبل أن يقوم: مائة مرة»وفي رواية: «**إن كنا لنعد لرسول الله صصص في المجلس: رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور: مائة مرة**»(46).

وفي «صحيح مسلم» من حديث الأغر المزني: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة**».

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وفسر العلماء (الغين) الذين يعتري قلبه عليه الصلاة والسلام بأنه: فترة

(46) «فتح الباري» (101/11، 102).

الانشغال عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما، عد ذلك ذنبًا، فاستغفر الله منه.

وقيل: هو شيء يعتري القلب، مما يقع من حديث النفس، بحكم الطبيعة البشرية.

وقيل: الأنبياء أشد الناس اجتهادًا في طاعة الله، لما حباهم من المعرفة بحقه، فهم دائبون في شكره، معترفون له بالتقصير أبدًا بما يجب له سبحانه وقال «الغزالي» في «الإحياء»: كان صصص دائم الترقي، فكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة[47].

وقال المحاسبي: الملائكة والأنبياء أشد لله خوفًا ممن دونهم، وخوفهم خوف إجلال وإعظام، واستغفارهم من التقصير لا من الذنب المحقق.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون قوله: «**رب اغفر لي خطيئتي**» واغفر لي ما قدمت وما أخرت» على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع، والشكر لربه، لما علم أنه قد غفر له[48].

وقد صح عنه صصص من صيغ الاستغفار وعباراته: ما لم ير عن رسول ولا نبي، مثل قوله في الصلاة: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما اخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء**

---

(47) «فتح الباري» (101/11، 102).

(48) «فتح الباري» (198/11).

قدير»[49].

وقال: «سيد الاستغفار: أن تقول: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت! خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[50].

قال الشيخ ابن أبي جمرة: جمع صصص في هذا الحديث، من بديع المعاني، وحسن الألفاظ: ما يحق له أن يسمى: «سيد الاستغفار»، ففيه: الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعمة إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو، وفي كل ذلك الإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، فإن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان في ذلك عون من الله تعالى، وهذا القدر هو الذي يكنى عنه بالحقيقة»[51] (انتهى ملخصًا).

شروط الاستغفار وآدابه:

للاستغفار المقبول عند الله شروط لابد منها، وآداب مكملة لها:

1- وأول هذه الشروط: صحة النية، والإخلاص لله تعالى، فإن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، كما قال تعالى: **{وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا**

(49) رواه الشيخان عن أبي موسى. «الفتح» (196/11، 197).
(50) رواه البخاري في كتاب الدعوات عن شداد بن أوس برقم (6306).
(51) «فتح الباري» (100/11).

لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ} [البينة: 5].

وقال صصص: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» متفق عليه.

2- وثاني هذه الشروط: أن يواطئ القلب اللسان على الاستغفار، فلا يقول بلسان: استغفر الله، وقلبه مصر على المعصية، وقد جاء عن ابن عباس ررر: المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه!

وقالت رابعة ررا: استغفرنا يحتاج إلى الاستغفار! وذلك لأنه يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

3- ومن الآداب المكملة: أن يكون على طهارة، حتى يكون في أكمل أحواله ظاهرًا وباطنًا، كما في حديث علي بن أبي طالب، قال: حدثني أبو بكر الصديق ررر - وصدق أبو بكر: سمعت النبي صصص يقول: «**ما من رجل يذنب ذنبًا، ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور، ثم يستغفر الله ززز، إلا غفر له**، ثم تلا[52]: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ}** [آل عمران: 135].

وفي حديث أبي بكر مرفوعًا: «**ما أصر من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة**»[53].

---

(52) قال الحافظ: أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن حبان، «الفتح» (98/11). ونسبه في «الجامع الصغير» إلى أبي داود والترمذي. وذكره الألباني «ضعيف الجامع» (5006).
(53) في «الفتح» أخرجه أبو داود والترمذي - نفسه.

4- ومن هذه الآداب: أن يستغفر الله تعالى، وهو بين الخوف والرجاء، فقد وصف الله تعالى نفسه بقوله {غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ} [غافر: 3]: وقال تعالى: {ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} [المائدة: 98]، {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} [الرعد: 6].

{نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ 49 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ} [الحجر: 49، 50].

وأمثال هذه الآيات كثير، وكلها تغرس في القلب التوازن بين الخوف والرجاء، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

فلا ينبغي للعاصي أن يدع الاستغفار مهما تكن ذنوبه من الكثرة، والعظم، فإن مغفرة الله تعالى أعظم منها، ورحمته أوسع، وعفوه أكبر.

وفي الحديث القدسي الشهير الذي رواه مسلم عن «أبي ذر» عن النبي صصص عن ربه ززز: **«يا عبادي، إنكم تذنبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم»**.

5- ومن ذلك: أن يتخير الأوقات الفاضلة، مثل أوقات السحر، كما قال تعالى: {وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ} [آل عمران: 17]، {وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ} [الذاريات: 18].

ولما قال أبناء يعقوب لأبيهم: {قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ 97 قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} [يوسف: 97، 98] قال

المفسرون: إنه آخر الاستغفار إلى وقت السحر، لأنه أقرب إلى الاستجابة، وأبعد عن الرياء، وأصفى للقلوب، وهو وقت التجلي الإلهي في الثلث الأخير من الليل.

6- ومن الآداب: الاستغفار ي الصلاة: في السجود، وقبل السلام، أو بعد السلام

وقد علم النبي صصص أبا بكر الصديق أن يقول في الصلاة قبل السلام: **«اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»**.

7- ومن الآداب: أن يدعو لنفسه وللمؤمنين، فيدخل في زمرتهم، عسى أن يرحمه الله تعالى ويغفر له ببركتهم وفي زمرتهم.

ولهذا نجد الأنبياء لا يقتصرون على الاستغفار لأنفسهم، بل لهم ولوالديهم وللمؤمنين والمؤمنات كما في دعاء نوح وإبراهيم وغيرهما.

فمن دعاء نوح: **{رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ}** [نوح: 28].

ومن دعاء إبراهيم: **{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ}** [إبراهيم: 41].

8- ومن الآداب: أن يدعو ويستغفر بالصيغ المذكورة في القرآن، والمأثورة في السنة، فهي أنصع بيانًا، وأرجح ميزانًا، وأجمع للمعاني، وأروع في المباني، واعظم تأثيرًا في القلوب، بخلاف ما يصنعه الناس من صيغ يختارونها، وأوراد يؤلفونها، فلن يكون لها حلاوة الكمات القرآنية،

وطلاوة العبارات النبوية.

على أن في الاستغفار والدعاء بالمأثور أجرين:

1- أجر الدعاء والاستغفار.

2- وأجر الاتباع والاقتداء.

ومن الصيغ والأدعية القرآنية: الأدعية التي ذكرها القرآن عن آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل والأنبياء والصالحين. مثل:

{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ} [الأعراف: 23].

{رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ 4 رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [الممتحنة: 4، 5].

{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

{رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ} [آل عمران: 193].

ومن الحديث: جاءت صيغ كثيرة متنوعة، منها: سيد الاستغفار، الذي تقدم ذكره.

ومنها: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري**»، وقد

تقدم.

ومنها: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهم نقني من خطاياي كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس**»رواه البخاري عن أبي هريرة ورواه الشيخان عن عائشة. وقد كان يدعو به بعد تكبيرة الإحرام، وقبل قراءة الفاتحة.

ومنها: «**اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي**» رواه احمد والترمذي وحسنه أبو يعلي وغيرهم عن أبي موسى.

هل ينفع الاستغفار مع الإصرار؟:

ومن الأسئلة التي تبرز هنا: هل ينفع الاستغفار صاحبه مع إصراره على المعصية، صغيرة كانت أو كبيرة؟.

اختلف أرباب السلوك في ذلك:

فمنهم من قال: ينفع بإطلاق، وإن لم يكن معه عزم وتوبة.

ومنهم من قال: لا ينفع بإطلاق، حتى يكون معه توبة.

ومنهم من فصل في ذلك.

وأنا من هذا الصنف الثالث، فأقول: إن الاستغفار بمجرد اللسان ينفع المستغفر، إذا صحبه حرارة الابتهال، والصدق في السؤال، والتضرع في الحال، والشعور بالفقر إلى المغفرة في الاستقبال، فهو يسأل الله المغفرة سؤال عبد فقير إلى مولاه الغني، وسؤال مخلوق ضعيف إلى خالقه القوي،

وسؤال كائن صغير إلى ربه الكبير، بل ربه الأكبر، الذي لا تضيق به رحمته، ولا تعجزه مغفرته، لا تنفعه طاعته، ولا تضره معصيته، فهو إذا استغفر بهذا الشعور، وبهذه الروح، جدير ألا يضيع استغفاره هباء. ومن الأدلة على ذلك:

أولًا: ما سبق إيراده من آيات القرآن وأحاديث الرسول في فضل الاستغفار، وهي غريزة وفيرة، وقد وردت مطلقة، تشمل المصر وغيره، فلماذا نقيدها بقيد عدم الإصرار؟.

ثانيًا: أن الاستغفار - ولو كان باللسان - حسنة في ذاته تصلح لتكفير السيئات، فكيف إذا كان معه التضرع والابتهال؟.

وقد قال «الإمام الغزالي» ححح: بل أقول: الاستغفار باللسان أيضًا: حسنة؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة: خير من حركة اللسان بغيبة، أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصانًا بالإضافة إلى عمل القلب، ولذا قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساني يجري بالذكر والقرآن، وقلبي غافل! فقال له: اشكر الله تعالى، إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير، وعوده الذكر، ولم يستعمله في الشر، ولم يعوده الفضول![54]

ثالثًا: أن لله تعالى وعد - ووعده الحق - أنه لا يضيع عمل عامل، ولا أجر محسن، كما قال تعالى: **{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}** [الكهف: 30]، **{فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ}** [هود: 115]، **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ}**

(54) الإحياء : 4

[الزلزلة: 7]. **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا}** [النساء: 40]، **{فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ}** [آل عمران: 195].والاستغفار - كما ذكرنا - عمل، وعمل حسن في حد ذاته.

وأما الحديث الذي رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس مرفوعًا: «**المستغفر من الذنب - وهو مصر عليه - كالمتستهزئ بربه**» فهو حديث ضعيف، والراجح أنه موقوف على ابن عباس، وليس بحديث نبوي(55)، وعلى فرض التسليم بثبوته، فهو محمول على من قال ذلك بحكم العادة، ومجاراة للآخرين، مع الغفلة عن المعنى، ودون تضرع ولا ابتهال.

وكذا ما نقل عن بعضهم من قوله: «الاستغفار من غير إقلاع: توبة الكذابين!»، وقول الآخر: «أستغفر الله من قول: استغفر الله!» فهو محمول على الاستغفار بمجرد القول باللسان، من غير أن يكون للقلب فيه شركة عمل.

وما قالته رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير! فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب، فهو يحتاج إلى استغفار من غفلة جنانه، لا من حركة لسانه، فإن من سكت عن الاستغفار

---

(55) ذكر الحافظ في «الفتح» حديث ابن عباس ولفظه: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه**» فقال: الراجح أن قوله: المستغفر إلى آخره: موقوف، وأوله عند ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود وسنده حسن. «الفتح» (471/13).

باللسان أيضًا يحتاج إلى استغفارين، لا إلى استغفار واحد!.

فهكذا ينبغي أن تفهم حمد ما يحمد، وذم ما يذم، وإلا جهلت معنى قول القائل: حسنات الأبرار سيئات المقربين! فإن هذه أمور تثبت بالإضافة «أي أمور نسبية» فلا ينبغي أن تؤخذ عن غير إضافة، بل ينبغي ألا يستحقر ذرات الطاعات والسيئات.

ولقد قال الإمال جعفر الصادق: «إن الله تعالى خبأ ثلاث في ثلاث: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئًا، فلعل رضاه فيه، وخبأ سخطه في معاصيه، فلا تحقروا منها شيئًا، فلعل غضبه فيه، وخبأ وليه في عباده، فلا تحقروا من عباد الله أحدا، فلعله ولي الله».

وقال سهل بن عبد الله: «لابد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله: أن يرجع إليه في كل شيء مما قدره وقضاه، فإن عصاه قال: يا رب استر عليّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب علي! فإذا تاب قال: يا رب، ارزقني العصمة! فإذا عمل الطاعة قال: يا رب تقبل مني!».

وقال الغزالي في «الإحياء»: «إياك أن تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصي فلا تبقيها، كالمرأة الخرقاء، تكسل عن الغزل، تعللًا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، تقول: وأي غني يحصل في خيط واحد؟ وما وقع ذلك في الثياب؟ لا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطًا خيطًا، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة، فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلًا»(56).

---

(56) من «إحياء علوم الدين» كتاب التوبة بتصرف.

وذكر في «كتاب الأذكار» عن الربيع بن خيثم أنه قال لا تقل: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذنبًا وكذبًا إن لم تفعل، بل قل: اللهم اغفر لي وتب علي، قال النووي: هذا حسن، وأما كراهية «أستغفر الله» وتسميته كذبًا، فلا يوافق عليه؛ لأن معنى «أستغفر الله» أطلب مغفرته، وليس هذا كذبًا. قال: ويكفي في رده حديث ابن مسعود بلفظ: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه: غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف» أخرجه «أبو داود والترمذي» وصححه الحاكم. قال الحافظ بن حجر: هذا في لفظ «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم» وأما «أتوب إليه» فهو الذي عنى الربيع ححح أنه كذب، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التوبة كما قال، وفي الاستدلال للرد عليه بحديث ابن مسعود نظر؛ لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين، لا خصوص «استغفر الله» فيصح كلامه كله والله أعلم.

قال الحافظ: «ورأيت في الحلبيات للسبكي الكبير: الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما، فالأول فيه نفع لأنه خير من السكوت، ولأنه يعتاد قول الخير، والثاني نافع جدا، والثالث أبلغ منهما، لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة، فإن العاصي المصر يطلب المغفرة، ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه، إلى أن قال: والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة، هو بحسب وضع اللفظ، لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ «أستغفر الله» معناه التوبة، فمن كان ذلك معتقده، فهو يريد التوبة لا محالة، ثم قال: وذكر بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى: {وَأَنِ

ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ والمشهور أنه لا يشترط»[57].

* * *

(57) «فتح الباري» (472/13).

تتمات التوبة وأحكامها

تمام التوبة ودوامها.

قضاء حقوق الله.

مظالم الخلق.

التوبة من حقوق العباد.

توبة من تعذر عليه رد الحقوق المالية.

من عاوض غيره معاوضة محرمة.

مظالم العباد الأدبية كالغيبة والسب.

توبة العاجز عن المعصية.

قبول التوبة.

التوبة مقبولة من ناحية سنن الله.

علامات التوبة المقبولة.

القائلون: لا توبة للقاتل وأدلتهم.

حجج الجمهور على قبول التوبة من القاتل.

حكم القاتل إذا اقتص منه.

أقسام الناس في التوبة.

تمام التوبة ودوامها

قال الإمام الغزالي:

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط، فلابد من بيانها.

أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي.

وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه: وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبًا: أن مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنه سيموت منه، لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى، والتعرض بها للنار: فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم: رقة القلب، وغزارة الدمع، وفي الأثر: «جالسوا التوابين، فإنهم أرق أفئدة» ومن علامته: أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلًا عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة.

وفي الإسرائيليات: أن الله عز وجل قال لبعض أنبيائه، وقد سأله قبول توبة

عبد، بعد أن اجتهد سنين في العبادة، ولم ير قبول توبته: فقال: وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته، وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه.

وأما القصد الذي ينبعث منه، وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال، وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط منه، وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة، ودوام ترك المعصية إلى الموت.

قضاء حقوق الله:

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي: أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام «أقول: والمرأة بالسن أو بالحيض» ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة، وشهرًا شهرًا، ويومًا يومًا، ونفسًا نفسًا، وينظر إلى الطاعات: ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي: ما الذي قارفه منها؟.

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها فاقدة شرطًا من شروط صحتها، فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها: حسب من مدة بلوغه، وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه، ويقضي الباقي، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن، ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر أو مرض أو: أفطرت المرأة بسبب الحيض أو النفاس ولم تقضه، فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد، ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه - لا من زمان

البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي[58] - فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته.

وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين، ولم يتفق له الخروج إلى الحج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيًا، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره، ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة، ومس مصحف بغير طهارة، واعتقاد بدعة، وشرب خمر، وسماع ملاه، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر، ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسيها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذًا من قوله صصص «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[59]، بل من قوله تعالى: **{إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ}** [هود: 114]. فيكفر سماع الملاهي

(58) هذا هو رأي جمهور الأئمة وهو الذي رجحته في كتابي «فقه الزكاة»

(59) رواه الترمذي عن أبي ذر وصححه وقد تقدم.

بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثًا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكذلك بأن يكتب مصحفًا ويجعله وقفًا، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه أحب إليه، وعد جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تمحي كل سيئة بحسنة من جنسها، لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضًا مؤثرًا في المحو. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى. ويدل على أن الشيء يكفر بضده: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب: السرور بها والحنين إليها، فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم.

مظالم الخلق:

وأما مظالم العباد، ففيها أيضًا معصية وجناية على حق الله تعالى، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضًا، فما يتعلق منه بحق الله تعالى، تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله في المستقبل، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين،

وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب، لأن تلك إحياء، إذ العبد الرقيق مفقود لنفسه موجود لسيده، والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه، فيقابل الإعدام بالإيجاد المقدور. وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب، أعني به الإيذاء المحض.

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية[60]، ووصولها إلى المستحق، إما منه، أو من عاقلته، وهو في عهدة ذلك قبل الوصول، وإن كان عمدًا موجبًا للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم، ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتله، ولا تسقط عهدته إلا بهذا، ولا يجوز له الإخفاء.

وليس هذا كما لو زنى أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره، ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن أمر هذه إلى الوالي، حتى إذا أقام عليه الحد وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما صح أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صصص فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني! فرده، فلما كان من الغد أتاه

---

(60) وعليه أيضًا كفارة: تحرير رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت! فرده الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين: فقائل يقول: لقد هلك، وأحاطت به خطيئته! وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته، فقال رسول الله صصص «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**»(61).

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه.

وإن كان المتناول مالًا تناوله بغصب، أو خيانة، أو غبن في معالمة بنوع تلبيس، كترويج زائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقص أجرة أجير، أو منع أجرته.. فكل ذلك يجب أن يفتش عنه، لا من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ، إن كان الولي قد قصر فيه، فإن لم يفعل كان ظالمًا مطالبًا به، إذ يستوي في الحقوق المالية، الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق، من أول يوم حياته إلى يوم توبته، قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا، طال في الآخرة حسابه.

فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب، ونوع من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدًا واحدًا، وليطف في نواحي العالم، وليطلبهم وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة، وعلى التجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له طريق، إلا أن يكثر من الحسنات، حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته، وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة

(61) أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الخصيب.

مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته، حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك بسيئات غيره!!.

فهذا طريق كل تائب في رد المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات، لو طال العمر، بحسب طول مدة الظلم، فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريبًا؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات.. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة، فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكًا معينًا، وما لا يعرف له مالكًا، فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام، فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم، أو يعيبهم في الغيبة، فيطلب كل من تعرض له بلسان، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحدًا واحدًا منهم، ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضًا في القيامة، وأما من وجده، وأحله بطيب قلب منه، فذلك كفارته، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه، لم تطب نفسه بالإحلال، وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته.

فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته،

كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه، يعظم أذاه مهما شوفه به، فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف، فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه، فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه، فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به، ويسعى في مهماته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه، ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار، فيكون تلطفه به واعتذاره إليه، من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه، كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر، أو زاد عليه، أخذ ذلك منه عوضًا في القيامة يحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالًا فجاء بمثله، فامتنع من له المال من القبول ومن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه، شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين، وأعدل المقسطين.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدًا مؤكدًا، ويعاهده بعهد وثيق: أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلًا، فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائبًا ما لم يتأكد عزمه في الحال[62].

---

(62) «الإحياء» (جـ4 ص 34 - 38) ببعض تصرف.

وما ذكره الغزالي فيما يتعلق بحقوق العباد: مسلم في جملته، وإن كان فيه بعض تفصيلات لابن القيم سنذكرها.

وأما فيما يتعلق بحقوق الله، فهناك رأي آخر بالنسبة للصلاة، وقضائها، فرأى المذاهب الأربعة: وجوب قضاء الفوائت، وإن مضت عليها عشرات السنين، يقضى منها ما قدر عليه على مرور الوقت.

والرأي الآخر يقول: إن الصلاة التي تقضى ما كان فواتها عن نوم أو نسيان، كما جاء في الحديث الصحيح، وما عدا ذلك فقد انتهى وقتها، ولا يمكنه قضاؤها، وإنما عليه أن يعوض ما فاته بصلاة النوافل، وإحسان الفرائض بإتمامها كما يحب الله ركوعها وسجودها وخشوعها.

وكأنما يعتبر هذا الرأي من بدأ الصلاة بعد إضاعتها دهرًا طويلًا، كأنه دخل الإسلام من جديد، فعليه أن يبدأ صفحة جديدة مع الله، ويستبق الخيرات، ويسارع إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض.

والموضوع فيه كلام كثير، يرجع إليه في الجزء الأول من «مدارج السالكين» لابن القيم، وقد رجح هو وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية عدم القضاء، وهو الذي أميل إليه لمن ضيع من عمره سنوات لم يحن فيها ظهره لله راكعًا، أو يعفر جبهته لله ساجدًا.

ونقف بعض الوقفات في حقوق العباد.

التوبة من حقوق العباد:

وللتشديد في حقوق العباد، وقيامها أصلًا على المشاحة، كانت التوبة منها بأحد أمرين: إما أن يردها إلى صاحبها إن كان حيًا، أو ورثته إن مات.

وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به، إن كان حقًا ماليًا أو جناية على بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبي صصص قال: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**»(63).

توبة من تعذر عليه در الحقوق المالية:

وكل من ثبت عليه حقوق مالية للناس يجب عليه أن يرجعها إليهم، أو إلى ورثتهم، فإن لم يكن عنده ما يكفي سعى في ذلك طول حياته ما استطاع، وكلما حصل شيئًا قضى بعض ما عليه، كل بنسبة حقه ودينه عند التائب وفق قسمة الغرماء، فمن كان في ذمته هذه الحقوق المالية، ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها، أو إلى ورثتهم، لجهله بهم، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك، فاختلف في توبة مثل هذا.

فقالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها، فإذا كان ذلك قد تعذر عليه، فقد تعذرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا.

قالوا: فإن هذا حق الآدمي لم يصل إليه، والله سبحانه لا يترك من حقوق عباده شيئًا، بل يستوفيها لبعضهم من بعض، ولا يجاوزه ظلم ظالم، فلابد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه، ولو لطمة، ولو كلمة، ولو رمية بحجر.

قالوا: وأقرب ما لهذا في تدارك الفارط منه: أن يكثر من الحسنات، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم، فيتجر تجارة يمكنه

---

(63) رواه البخاري.

الوفاء منها. ومن أنفع ما له: الصبر على ظلم غيره له وأذاه، وغيبته وقذفه، فلا يستوفى حقه في الدنيا، ولا يقابله، ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته، فإنه كما يؤخذ منه ما عليه: يستوفى أيضًا ماله، وقد يتساويان، وقد يزيد أحدهما عن الآخر.

ثم اختلف هؤلاء في حكم ما بيده من الأموال.

فقالت طائفة: يوقف أمرها، ولا يتصرف فيها ألبتة.

وقالت طائفة: يدفعها إلى الإمام أو نائبه، لأنه وكيل أربابها، فيحفظها لهم، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا، ولم يغلقه الله عنه، ولا عن مذنب، وتوبته: أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها بأن يدفعها إلى الفقراء والمحتاجين، أو إلى جهات الخير ومصالح المسلمين.

ومنها: جماعات الجهاد في سبيل الله، ومراكز الدعوة إلى الإسلام، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق، كان لأرباب المال الخيار: بين أن يجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا، فيأخذوا من حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له، إذ لايبطل الله سبحانه ثوابها، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض، فيغرمه إياها، ويجعل أجرها لهم، وقد غرم من حسناته بقدرها.

قال ابن القيم:

وهذا مذهب جماعة من الصحابة، كما هو مروي عن ابن مسعود، ومعاوية وحجاج بن الشاعر.

فقد روي أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن، فذهب رب الجارية، فانتظره حتى يئس من عوده، فتصدق بالثمن، وقال: اللهم هذا عن رب الجارية، فإن رضي فالأجر له، وإن أبى فالأجر لي، وله من حسناتي بقدره.

وغل رجل من الغنيمة، ثم تاب، فجاء بما غله إلى أمير الجيش، فأبى أن يقبله منه، وقال: كيف لي بإيصاله إلى الجيش، وقد تفرقوا؟ فأتى حجاج بن الشاعر، فقال: يا هذا، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم، فادفع خُمسه إلى صاحب الخمس، وتصدق بالباقي عنهم، فإن الله يوصل ذلك إليهم - أو كما قال - ففعل... فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفيتتك بذلك أحب إلي من نصف ملكي!.

قالوا: وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربها، بعد تعريفها، ولم يرد أن يتملكها، تصدق بها عنه، فإن ظهر مالكها خيره بين الأجر والضمان.

قالوا: وهذا لأن المجهول في الشرع كالمعدوم، فإذا جهل المالك صار بمنزلة المعدوم، وهذا مال لم يعلم له مالك معين، ولا سبيل إلى تعطيل الانتفاع به، لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه وبالفقراء، وبمن هو في يده، أما المالك: فلعدم وصول نفعه إليه، وكذلك الفقراء، وأما من هو في يده: فلعدم تمكنه من الخلاص من إثمه، فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به، ومثل هذا لا تبيحه شريعة، فضلًا عن أن تأمر به وتوجبه، فإن الشرائع مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان وتكميلها، وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليلها، وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به: مفسدة محضة، لا مصلحة فيها، فلا يصار إليه.

إن المعلوم - كما ذكر ابن القيم - أن صاحب هذا المال الذي قد حيل بينه وبينه: أشد شيء رضا بوصول نفعه الأخروي إليه، وهو أكره شيء لتعطيله، أو إبقائه مقطوعًا عن الانتفاع به دنيا وأخرى، وإذا وصل إليه ثواب ماله سره ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه في الدنيا، فكيف يقال: مصلحة تعطيل هذا المال - عن انتفاع الميت والمساكين به ومن هو بيده - أرجح من مصلحة إنفاقه شرعًا؟ بل أي مصلحة دينية أو دنيوية في هذا التعطيل؟ وهل هو إلا محض المفسدة؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - سأله شيخ، فقال: هربت من أستاذي أي سيدي وأنا صغير وإلى الآن لم أطلع له على خبر، وأنا مملوك، وقد خفت من الله ﷻ، وأريد براءة ذمتي من حق سيدي من رقبتي، وقد سألت جماعة من المفتين، فقالوا لي: اذهب فاقعد في المستودع! فضحك شيخنا، وقال: تصدق بقيمتك - أعلى ما كانت - عن سيدك، ولا حاجة لك بالمستودع، تقعد فيه عبثًا في غير مصلحة، وإضرارًا بك، وتعطيلًا عن مصالحك، ولا مصلحة لأستاذك في هذا، ولا لك ولا للمسلمين، أو نحو هذا من الكلام. والله أعلم[64].

من عاوض غيره معاوضة محرمة:

المسألة الثانية: إذا عاوض غيره معاوضة محرمة، وقبض العوض - كالزانية، والمغني، وبائع الخمر، وشاهد الزور ونحوهم - ثم تاب والعوض بيده.

---

(64) انظر: «مدارج السالكين» (1/387 - 390).

فقالت طائفة: يرده إلى مالكه، إذ هو عين ماله، ولم يقبضه بإذن الشارع، ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح.

وقالت طائفة: بل توبته بالتصدق، ولا يدفعه إلى من أخذه منه، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أصوب القولين، فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له، ورضاه ببذله، وقد استوفى عوضه المحرم، فكيف يجمع له بين العوض والمعوض؟ وكيف يرد عليه مالًا قد استعان به على معاصي الله، ورضى بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانيًا وثالثًا؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع: أن يُقضى للزاني بكل ما دفعه إلى من زنى بها، ويؤخذ منها ذلك طوعًا أو كرهًا، فيعطاه وقد نال عوضه؟

وهب أن هذا المال لم يملكه الآخذ، فملكُ صاحبه، زال عنه بإعطائه لمن أخذه، وقد سلم له ما في قبالته من النفع، فكيف يقال: ملكه باق عليه، ويجب رده إليه؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به، فإنه قد اخذه من وجه خبيث برضا صاحبه وبذله له بذلك، وصاحبه قد رضى بإخراجه عن ملكه بذلك، وأن لا يعود إليه، فكان أحق الوجوه به: صرفه في المصلحة التي ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم، ولا يُقوى الفاجر به ويُعان، ويجمع له بين الأمرين.

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام، وتعذر عليه تمييزه: أن يتصدق بقدر الحرام، ويطيب باقي ماله، والله أعلم.

مظالم العباد الأدبية كالغيبة والسب:

تلك هي التوبة من حقوق الخلق المالية، فكيف تكون التوبة من حقوقهم

الأدبية، ومظالمهم المعنوية، كأن تكون مظلمة الإنسان المعتدي عليه: بقدح فيه، بغيبة أو قذف أو سب أو سخرية واستهزاء، أو نحو ذلك، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه، أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه وإعتابه؟

على ثلاثة أقوال، وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط في توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أو لا؟ ويخرج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف في مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل، هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول، شرط إعلامه بعينه كأنه يقول له: أنا سببتك وشتمتك، أو أنا سخرت منك، أو أنا اغتبتك وذكرتك بسوء، لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفًا بمقداره، فلابد من إعلام مستحقه بحجم هذا الحق، لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف مقداره، فيقول له: أنا ظللت أغتابك عشر سنوات، فقد يسامح في غيبته مرة أو مرات، ولا يسامح في غيبته سنوات.

واحتجوا بالحديث المذكور، وهو قوله صصص: «**من كان لأخيه عنده مظلمة ـ من مال أو عرض ـ فليتحلله اليوم**».

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقًا لله، وحقًا للآدمي، فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه تعالى.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم نفسه، إن شاء اقتص، وإن شاء عفا، وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته، وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية، قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقا وغمًّا، وقد كان مستريحًا قبل سماعه، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثه ضررًا في نفسه أو بدنه.

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه، فضلًا عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سببًا للعداوة والحرب بينه وبين القائل، فلا يصفو له أبدًا، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف. وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين:

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه، فلا يجوز إخفاؤها عنه، فإنه

محض حقه، فيجب عليه أداؤه إليه، بخلاف الغيبة والقذف، فإنه ليس هناك شيء ينفعه، يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تهج منه غضبًا ولا عداوة، بل ربما سره ذلك وفرح به، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره، ليلًا ونهارًا، من أنواع القذف والغيبة والهجو، فاعتبار احدهما بالاخر اعتبار فاسد، وهذ هو الصحيح في القولين كما رأيت، والله أعلم(65).

التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره:

ومن الأسئلة المهمة المطلوبة إجاباتها وبيان حكمها هنا، هذا السؤال وهو:

هل تصح التوبة من ذنب، مع الإصرار على غيره؟.

فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد، ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها، كالنووي وغيرها.

وقد نقل أبو طالب المكي في «قوت القلوب» عن بعض العلماء قوله: من تاب عن تسعة وتسعين ذنبًا، ولم يتب من ذنب واحد: لم يكن عندنا من التائبين(66)!

قال الإمام ابن القيم:

والمسألة مشكلة، ولها غور، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم، والذين صححوها احتجوا بأنه لما صح الإسلام - وهو توبة من

---

(65) انظر: «المدارج» (1/289 - 291).

(66) «قوت القلوب» (1/191).

الكفر - مع البقاء على معصية لم يتب منها، فهكذا تصح التوبة من ذنب، مع بقائه على آخر.

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره، لقوته ونفاذه، وحصوله - تبعًا بإسلام الأبوين أو أحدهما - للطفل.

واحتج الآخرون بأن التوبة: هي الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته، وأي رجوع لمن تاب من ذنب واحد، وأصر على ألف ذنب؟.

قالوا: والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب، لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته، وتاب توبة نصوحا، والمصرّ على مثل ما تاب منه - أو أعظم - لم يراجع الطاعة، ولم يتب توبة نصوحا.

قالوا: ولأن التائب إذا تاب إلى الله، فقد زال عنه اسم العاصي كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم الكافر وأما إذا أصر على غير الذنب الذي تاب منه فاسم المعصية لا يفارقه، فلا تصح توبته.

وسر المسألة: أن التوبة هل تتبعض، كالمعصية، فيكون تائبًا من وجه دون وجه، كالإيمان والإسلام؟

والراجح: تبغضها، فإنها كما تتفاضل في كيفيتها، كذلك تتفاضل في كميتها، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضًا آخر، لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر؛ لأن التوبة فرض من الذنبين. فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر، فلا يكون ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد، معناه الإقلاع عما

يكرهه الله، والندم عليه، والرجوع إلى طاعته، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة، إذ هي عبادة واحدة، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض.

وأصحاب القول الآخر يقولون: كل ذنب له توبة تخصه، وهي فرض منه، لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

قال ابن القيم:

والذي عندي في هذه المسألة: أن التوبة لا تصح من ذنب، مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه: فتصح، كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلًا؛ فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها، وقهر سلطان شهوتها له... وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة، لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها.. وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه

بالتوبة[67].

والذي يترجح لي في هذه القضية: أن كل من تاب من ذنب توبة صادقة، فإن المأمول في أكرم الأكرمين: أن يقبل توبته، من هذا الذنب بعينه، وإن بقي متعلقًا بذنب آخر من جنسه، فمن تاب من عمل قوم لوط بصدق قبل الله توبته، وإن ضعفت إرادته عن التوبة من الزنى، ومن تاب عن ربا النسيئة، قبل الله منه، وإن بقي يمارس ربا الفضل، أو تاب من الغيبة والنميمة، وإن ظل يسخر من الناس أو يكذب في القول أو غير ذلك من آغات اللسان.

وإنما صحت التوبة هنا، لأن التوبة في حد ذاتها حسنة، بل حسنة عظيمة، والله تعالى يقول: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا}** [النساء: 40].

ثم إنه تعالى قد وعد بقبول التوبة من عباده بوجه عام، ولم يخص ذنبًا من آخر، كما في قوله تعالى: **{وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ}** [الشورى: 25]. وهذا قد تاب من ذنبه، فهو أهل أن يقبل الله منه، ويعفو عنه.

ثم إن هذا يوافق ما هو معروف في هذا الباب من سعة الرحمة والمغفرة، التي تسع كل مذنب، وكل تائب كما قال تعالى: **{إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا}**.

ثم هو أيضًا الذي يعالج ضعف الإنسان، ويأخذه بالتدرج، ويفتح له الباب، ليترقى شيئًا فشيئًا، ويترك المعصية خطوة وخطوة، ومرحلة بعد مرحلة، حتى يهديه الله في النهاية إلى تركها جميعًا، وقد جاء في الحديث الصحيح

---

(67) «مدارج السالكين» (1/273 - 275).

«إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين».

ومما يدل لرأي الأكثرين في قبول توبة التائب إذا تكرر منه الذنب، وتكررت منه التوبة: ما رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي صصص قال: «**إن عبدًا أذنب ذنبًا، فقال: رب؛ أذنبت، فاغفر لي، فقال ربه: أعلم عبدي إن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا، فقال: رب! أذنبت آخر، فاغفره! فقال تعالى: أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا. قال: قال: رب! أذنبت آخر فاغفره لي! فقال: أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي... ثلاثًا فليعمل ما شاء**»(68).

قال العلامة القرطبي في كتابه «المفهم في شرح مسلم»:

يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله، وسعة رحمته، وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنًا للسان، لتنحل به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «**خياركم كل مفتن تواب**» ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال بلسانه: استغفر الله، وقلبه مصر على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار!

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» معلقًا: ويشهد له ما أخرجه ابن أبي الدنيا

(68) متفق عليه: «اللؤلؤ والمرجان» (1754). وانظر: «فتح الباري» (ج13 صـ 46) وما بعدها.

من حديث ابن عباس مرفوعًا: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب، وهو مقيم عليه - كالمستهزئ بربه**» قال: والراجح أن قوله: «والمستغفر...» إلى آخره: موقوف، أي من كلام ابن عباس، وليس حديثًا نبويا، وأوله عند ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود، وسنده حسن.

قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث: أن العود إلى الذنب، وإن كان أقبح من ابتدائه، لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه.

وقال الإمام النووي: في الحديث أن الذنوب، ولو تكررت مائة مرة - بل ألفا أو أكثر - وتاب في كل مرة، قبلت توبته، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته، وقوله: اعمل ما شئت - أو فليعمل ما يشاء - معناه ما دمت تذنب فتتوب، غفرت لك. اهـ[69].

صحيح أن التوبة الكاملة هي التوبة من جميع الذنوب، وهي التي يترتب عليها الفلاح المذكور في قوله تعالى: وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31].

وهي التي تكفر بها جميع السيئات، وتغفر بها جميع الذنوب، وتدخل صاحبها جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه.

---

(69) انظر: «فتح الباري» (471/14، 472) ط. دار الفكر المصورة عن السلفية.

وهي التي توجب حب الله المطلق لأصحابها، كما توجب فرحة بهم وضحكه لهم.

بل التوبة الكاملة ليست هي التي تمنع صاحبها من اقتراف المعاصي فقط، بل هي التي تحفزه إلى اكتساب الطاعات، وعمل الصالحات، والالتزام بأحكام الشرع وآدابه ظاهرًا وباطنًا فيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين خلقه أجمعين، حتى يستحق الفلاح في الأولى والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

فينبغي أن نفرق بين هذه التوبة الكلية المطلقة التي توجب لأهلها الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وبين التوبة الجزئية المقيدة التي يتحرر بها صاحبها من ذنب معين، وإن بقي مغلولًا بذنوب أخرى، فلكل من هاتين التوبتين حكمها.

توبة العاجز عن المعصية:

ومن الأسئلة التي ترد هنا: ما حكم العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يعتذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا فقد الشهوة إلى الزنى، والوالي الظالم إذا عزل عن سلطانه، وفقد القدرة على الظلم، وكل من وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

يقول ابن القيم هنا: في هذا قولان للناس:

فقالت طائفة: لا تصح توبته؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك فالتوبة من الممكن، لا من المستحيل، ولهذا لا تتصور التوبة من نقل

الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار، والطيران إلى السماء، ونحوه.

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق، ولا داعي للنفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك، المحمول عليه قهرًا، ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا: ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم: أن توبة المقاليس وأصحاب الجوائح: توبة غير معتبرة، ولا يحمدون عليها، بل يسمونها توبة إفلاس، وتوبة جائحة.

قال الشاعر:

ورحت عن توبته سائلًا وجدتها توبة إفلاس!

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند معاينة الموت لا تنفع، لأنها توبة ضرورة لا اختيار، قال تعالى: {**إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا 17 وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**} [النساء: 17، 18]. والجهالة ههنا: جهالة العمل، وإن كان عالمًا بالتحريم. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صصصص على أن كل ما عصى الله به فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة،

قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت، وقال السدى والكلبى: أن يتوب في صحته قبل مرض موته[70]، وفي المسند وغيره عن ابن عمر ررر عن النبي صصص قال «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» وفي نسخة دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعًا «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب ززز: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**[71]».فهذا شأن التائب من قريب، وأما إذا وقع في السياق - أي في سياق الموت - فقال: إني تبت الآن! لم تقبل توبته، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم

---

(70) قال السيد رشيد رضا حححِ، معلقًا على هذه الأقوال: اغتر الناس بظواهر هذه الأقوال في تفسير الآية، وهذه الأحاديث، فصاروا يسوفون في التوبة، ويصرون على المعاصي، فترسخ في قلوبهم، وتأنس بها أنفسهم، وتصير ملكات وعادات يتعذر عليهم - أو يتعسر - على غير الموفق النادر الإقلاع عنها حتى يجيئهم الأجل الموعود، وليس معنى الآية: أن التوبة المقبولة المرضية التي أوجب الله على نفسه قبولها: هي ما كانت عن معاصٍ يصر المرء عليها إلى ما قبل غرغرة الموت، ولو بساعات أو دقائق، بل المراد القرب من وقت الذنب المانع مع الإصرار، كما في الآية الأخرى، ولعل مراد عكرمة والضحاك وأمثالهما موافقة معنى الحديث، من أن الله يقبل توبة العاصي ما لم يغرغر، أي أنه على فرض أنه تاب في أي وقت من الأوقات، قبل الغرغرة والمعاينة، تقبل توبته، ولا يكون ذلك منافيًا للآية، فإن الإنسان قد يتوب قبل الغرغرة من ذنب عمله من عهد قريب، ولكن قلما يتوب من الإصرار الذي رسخ في الزمن البعيد، فإن تاب فقلما يتمكن من إصلاح ما أفسده الإصرار من نفسه ليصدق عليه قوله تعالى: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ}**. وجملة القول: إن المراد أن الإصرار والتسويف خطر، وإن كانت التوبة تقبل في كل حال اختيار، إذ الغالب أن المرء يموت على ما عاش عليه، فليحذر المغرورون.

(71) الحديث ضعيف، لأنه من رواية دراج وهو ضعيف، وخصوصًا في روايته عن أبي الهيثم.

القيامة، وعند معاينة بأس الله.

قالوا: ولأن حقيقة التوبة: هي كف النفس عن الفعل الذي هو متعلق النهي، والكف إنما يكون عن أمر مقدور، وأما المحال، فلا يعقل كف النفس عنه، ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع.

قالوا: ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم، يقترن به فعله المقدور، والتوبة منه: عزم جازم على ترك المقدور، يقترن به الترك، والعزم على غير المقدور محال، والترك في حق هذا ضروري، لا عزم غير مقدور، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء، ونقل الجبال، وغير ذلك.

والقول الثاني - وهو الصواب - أن توبته صحيحه ممكنة، بل واقعة، فإن أركان التوبة مجتمعة فيه، والمقدور له منها: الندم، وفي المسند مرفوعًا «الندم توبة» فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه، فهذه توبة، وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والفعل مقدورًا له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته، كقوله في الحديث الصحيح «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل**» صحيحًا مقيمًا وفي الصحيح أيضًا عنه «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر**» وله نظائر في الحديث، فتنزيل العاجز عن

المعصية، التارك لها قهرًا - مع نيته تركها اختيارًا لو أمكنه - منزلة التارك المختار أولى.

يوضحه: أن مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة، ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلًا وعزمًا، والعقوبة تابعة للمفسدة.

وأيضًا فإن هذا تعذر منه الفعل وما تعذر منه التمني والوداد، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته: أنه لو كان سليمًا لباشره، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني، والحزن على فوته، فإن الإصرار متصور في حقه قطعًا، فيتصور في حقه ضده، وهو التوبة، بل هي أولى بالإمكان والتصور من الإصرار، وهذا واضح.

والفرق بين هذا وبين المعاين، ومن ورد القيامة: أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة، والتوبة إنما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف، فالأوامر والنواهي لازمة له، والكف متصور منه عن التمني والوداد، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله، والله أعلم[72].

هل يرجع التائب من الذنب إلى درجته قبل الذنب؟

ومن الأسئلة الواردة هنا: أن العاصي إذا تاب من الذنب: هل يرجع إلى ما كان عليه من الدرجة التي حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟.

قال ابن القيم: اختلفوا في ذلك.

---

(72) «مدارج السالكين» (283/1 - 286).

فقالت طائفة: يرجع إلى درجته، لأن التوبة تجب الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضى لدرجته: ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته، فحسنته بالتوبة رقته إليها، وهذا كمن سقط في بئر، وله صاحب شفيق، أدلى إليه حبلًا تمسك به حتى رقي منه إلى موضعه، فهكذا التوبة والعمل الصالح، مثل هذا القرين الصالح، والأخ الشفيق.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فالبذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعدًا به للترقي.

قالوا: ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيرًا واحدًا، ثم عرض لأحدهما ما رده على عقبة أو أوقفه، وصاحبه سائر، فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته، وسار بإثر صاحبه، لم يلحقه أبدًا، لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى.

قالوا: والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد سيرًا ازدادت قوته، وذلك الواقف الذي رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية حمح يحكي هذا الخلاف ـ ثم قال: والصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرًا مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه، وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرًا مما كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته، وكان منحطا عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة(73). وقد ضرب لذلك مثل برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول، لا يلوى على شيء في طريقه، فعرض له رجل من خلفه جبذ ثوبه وأوقفه قليلًا، يريد تعويقه عن الصلاة، فله معه حالان:

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة، فهذه حال غير التائب.

الثاني: أن يجاذبه على نفسه، ويتفلت منه، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكون سيره جمزًا ووثبًا، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة، فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورثه تلك الوقفة فتورًا وتهاونًا، فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت، فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

أيهما أفضل: المطيع أم التائب توبة نصوحا؟

ومن الأسئلة المهمة في باب التوبة هذا السؤال: هل المطيع الذي لم يعص خير من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحًا، أو هذا التائب أفضل منه؟.

---

(73) «المدارج» (293/1)

قال ابن القيم: اختلف في ذلك.

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحًا، واحتجوا بوجوه:

أحدها: أن أكمل الخلق وافضلهم: أطوعهم لله، وهذا الذي لم يعص أطوع، فيكون أفضل.

الثاني: أن في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق، فتكون درجته أعلى من درجته.

الثالث: أن غاية التوبة: أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعي من سعى من هو كاسب رابح؟.

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب: كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه.

السادس: أن العاصي على خطر شديد، فإنه دائر بين ثلاثة أشياء:

أحدها: العطب والهلاك بشرب السم.

الثاني: النقصان من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك.

والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيرًا منها.

والأكثر إنما هو القسمان الأولان، ولعل الثالث نادر جدًا، فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطًا حصينًا، لا يجد الأعداء إليه سبيلًا، فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبدًا، والعاصي قد فتح فيه ثغرًا، وثلم فيه ثلمة.

والثامن: أن طمع العدو في هذا العاصي إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته، ولذلك يسمى جاهلًا، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صصص على أن كل ما عصى الله به فهو جهالة، وكذلك قال الله تعالى في حق آدم **{وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا}** [طه: 115]، وقال في حق غيره **{فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ}** [الأحقاف: 35]، واما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه: لم يطمع فيه عدوه، وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لابد أن تؤثر أثرًا سيئًا ولابد: إما هلاكًا كليًا، وإما خسرانًا وعقابًا، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان، وعمل التائب في رفع هذه الآثار والتكفير، وعمل المطيع في الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي صصص خاصة، فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في تكفير السيئات، وأين هذا من هذا؟

العاشر: ان المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله، وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم، وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة اضعاف رأس ماله، فسافر ثانيًا برأس ماله الأول وكسبه، فكسب عشرة

أضعافه أيضًا، فسافر ثالثًا أيضًا بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك، وهلم جرا، فإذا فتر عن السفر في آخر أمره، مرة واحدة، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه.

وطائفة رجحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه، واحتجت بوجوه:

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، واكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوابين.

الوجه الثاني: ان للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه.

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه، كما في الأثر الإسرائيلي: «يا رب أين أجدك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه

وهو ساجد» لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

ولعل هذا المعانى ترجح حال التائب إذا صدقت توبته وعوض ما فاته، والله أعلم بالسرائر.

* * *

قبول التوبة

من تأمل ما جاء في القرآن من آيات، وفي السنة من أحاديث، وعن الصحابة من أثار، تبين له أن هذه النصوص تدل بوضوح على أن من تاب إلى الله توبة نصوحا، واجتمعت شروط التوبة في حقه، فإنه يقطع بقبول الله توبته، كما يقطع بقبول إسلام الكافر إذا أسلم إسلامًا صحيحًا، وهذا قول الجمهور، وكلام ابن عبد البر يدل على أنه إجماع.

ومن الناس من قال: لا يقطع بقبول التوبة، بل يرجى، وصاحبها تحت المشيئة وإن تاب، واستدلوا بقوله: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ}** [النساء: 48]، فجعل الذنوب كلها تحت مشيئته، وربما استدل بالآيات التي استخدم القرآن فيها أداة الترجي، مثل عسى، ولعل، مثل قوله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ}** [التحريم: 8].، وبقوله: **{فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ}** [القصص: 67]، وقوله: **{وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [النور: 31]، وقوله: **{وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}** [التوبة: 102].

والظاهر أن هذا في حق التائب، لأن الاعتراف يقتضي الندم، وفي حديث عائشة عن النبي صصص قال: «**إن العبد إذا اعترف بذنبهن ثم تاب، تاب الله عليه**»(74).

والصحيح قول الأكثرين، وان هذه الآيات لا تدل على عدم القطع، فإن

---

(74) رواه البخاري (4141) و(4750)، و مسلم (2770)، وأحمد (196/6).

الكريم إذا أطمع، لم يقطع من رجائه المطمع، ومن هنا قال ابن عباس: إن «عسى» من الله واجبة، نقله عنه علي بن أبي طلحة(75)، وقد ورد جزاء الإيمان والعمل الصالح بلفظ: «عسى» أيضًا، ولم يدل ذلك على أنه غير مقطوع به، كما في قوله: **{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ}** [التوبة: 18].

وأما قوله: **{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ}** [النساء: 48]، فإن التائب ممن شاء أن يغفر له، كما أخبر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

التوبة مقبولة قطعًا من ناحية وعد الله:

ولا ريب أن التوبة إذا استوفت أركانها ومقوماتها واستجمعت شرائطها: مقبولة عند الله تعالى لا محالة حسب وعده، وحسب سنته سبحانه في خلقه.

اما وعده فقد وصف نفسه بقوله تعالى: **{غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ}** [غافر: 3]. قال تعالى: **{وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}** [الشورى: 25].

وقال ﻷ: **{أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}** [التوبة: 104].

فبين أن من أسمائه الحسنى «التواب» وهو الذي يوافق العاصي للتوبة، ويقبلها منه، فكل توبة من العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى: توبة قبلها

---

(75) رواه ابن جرير (1655)، وعلي بن أبي طلحة روايته عن ابن عباس مرسلة، فإنه لم يره.

للهداية والتوفيق، وتوبة بعدها للقبول.

وقال رجل لرابعة: إني أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبت هل يتوب الله علي؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لتبت!

تشير ررررا على قوله تعالى: **{ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ}** [التوبة: 118]. أي وفقهم للتوبة ليتوبوا، فتوبتهم ثمرة لتوبته ززز.

ولذلك قال بعض الصالحين: «أنا لا أحمل هم المغفرة، بل أحمل هم التوبة! وذلك لأن المغفرة نتيجة حتمية للتوبة، كما قال تعالى: **{قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53]. وإنما يغفر الله الذنوب جميعا بالتوبة، حتى الشرك والكفر بالله تعالى وبرسله، يغفره بالتوبة منه، كما قال تعالى: **{قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ}** [الأنفال: 38]».

حتى كفر الردة - وهو شر أنواع الكفر - إن تاب منه، ورجع عنه قبلت توبته، ومحيت خطيئته، كما قال تعالى: : **{كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمًا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ 86 أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ 87 خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ 88 إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ}** [آل عمران: 86 - 89]، فلم يغلق في وجوههم باب التوبة، برغم عظم جريمتهم التي استوجبت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولكنهم إذا تابوا تاب الله عليهم، فإن الله غفور رحيم، فهذا مقتضى أسمائه وصفاته، فمن يغفر إذا هو لم يغفر؟ ومن يرحم إذا هو سبحانه لم يرحم؟!

وآيات القرآن في هذا الباب غزيرة وفيرة، كلها تحمل وعد الله تعالى بالمغفرة وقبول التوبة، ووعده تعالى حق، وقوله صدق: **{وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}** [الكهف: 98]، **{وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ}** [الروم: 6].

يؤكد ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة، مثل:

ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى أن النبي صصص قال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حى تطلع الشمس من مغربها**».

وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، والطلب أبلغ وأخص من القبول، إذ الطالب أبلغ من القابل، فرب قابل ليس بطالب، ولا طالب إلا وهو قابل.

وما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة أنه صصص قال: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم لتاب الله عليكم**»(76).

فهذا ما يتعلق بقبول التوبة من ناحية وعده ززز في كتابه وعلى لسان رسوله.

التوبة مقبولة من ناحية سنن الله:

وأما قبول التوبة من ناحية سنته سبحانه في الخلق، وما أقام عليه هذا الكون من شبكة الأسباب والمسببات، فإن من عرف هذه السنن الإلهية واطرادها وثباتها: يعرف أن نور التوبة إذا سطع يمحو ظلمة الذنوب وآثارها في القلوب، كما يمحو بزوغ الفجر، ونور الشمس ظلام الليل، وكما يمحو الماء والصابون الوسخ والدرن، من الثوب والبدن، وكما يمحو الصقل صدأ

(76) حسنه في «صحيح الجامع الصغير» (5235).

الحديد.

ولهذا قالوا: إن نار الندم تحرق غبرة الذنب، ونور الحسنة يزيل عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام السيئات مع نور الحسنات، ومن توهم أن التوبة تصح بشرائطها ولا تقبل - فهو كمن يتوهم أن الشمس تطلع، والظلام لا يقلع، وأن الثوب يغسل، والوسخ لا يزول.

نعم، إذا تغلغل الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب، فلا يقوى الصابون على قلعه من أصله، وكذلك إذا توغل الصدأ في الحديد، فقد لا يصقله الجلاء، وهذا مثل القلب إذا تراكمت عليه الذنوب حتى صارت رينًا وطبعًا على القلب، فمثل هذا القلب المطبوع عليه، لا يتوب، ولا يرجع إلى الرب، كما قال تعالى في شأن قوم: {**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ 108 لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ**} [النحل: 108، 109].

ولكن هذا غير الذي نذكره هنا، وهو من تاب توبة استجمعت أركانها وشرائطها.

كما أن من حق التائب - بل من واجبه - أن يشك في قبول توبته، إذا شك في استكمال أركانها، أو في استيفاء شروطها، وما أدقها وما أصعبها وما أشق تحصيلها بكمالها على وجهها، ولهذا روى عن الربيع بن خيثم أنه كان يقول: لا تقل: أستغفر الله، وأتوب إليه، فيكون ذنبًا وكذبًا إن لم تفعل، بل قل: اللهم اغفر لي ذنبي وتب عليّ!

وكلما ارتقى الإنسان في سلم الصالحات: اتهم توبته، وارتاب في صحتها،

كما قال ابن القيم رحمه الله:

«وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله، فتاب للحال، لا خوفًا من ذي الجلال، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفًا من الله، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدنيا والآخرة، فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون آخر»(77).

علامات التوبة المقبولة:

وللتوبة المقبولة علامات تعرف بها، وتميزها عن التوبة المردودة عند الله تعالى.

منها: أن يكون التائب بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له، ولا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه **{أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ**

(77) «مدارج السالكين» (185/1).

﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوه تعالى: **﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾** [التوبة: 110] قال: تقطعها بالتوبة، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن علامات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة... قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، لم يجد منه بدًا، ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها! وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا

رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة ا لخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فلتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان، والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله(78).

هل هناك ذنوب لا تقبل التوبة منها كالقتل؟

اختلف الناس: هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أو لا؟

رأي الجمهور بقبول التوبة إذا صحت:

فقال الجمهور: التوبة تأتي على كل ذنب، فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل، ولو كان قتل النفس بغير حق.

القائلون: لا توبة للقاتل وأدلتهم:

وقالت طائفة: لا توبة للقاتل، وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه، فقالوا

---

(78) «المدارج» (1/186، 187).

«أليس قد قال الله تعالى في سورة الفرقان **{وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ - إلى أن قال - إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [الفرقان: 68 - 70]؟ فقال: كانت هذه الآية في الجاهلية، وذلك أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا، فأتوا برسول الله صصص، فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزل: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ}** [الفرقان: 68] الآية، فهذه في أولئك، وأما التي في سورة النساء وهي قوله تعالى: **{وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا}** [النساء: 93] فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه، ثم قتل، فجزاؤه جهنم» وقال زيد بن ثابت «لما نزلت التي في الفرقان **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ}** عجنا من لينها، فلبثنا سبعة أشهر، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة» وأراد بالغليظة: هذه الآية التي في سورة النساء، وباللينة: آية الفرقان، قال ابن عباس «آية الفرقان مكية، وآية النساء مدنية، نزلت ولم ينسخها شيء».

قال هؤلاء: ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدًا متعذرة؛ إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله، أو إعادة نفسه - التي فوتها عليه - إلى جسده، إذ التوبة من حق الآدمي، لا تصح إلا بأحدهما، وكلاهما متعذر على القاتل، فكيف تصح توبته من حق آدمي لم يصل إليه، ولم يستحله منه؟

ولا يرد عليهم هذا في المال إذا مات ربه ولم يوفه إياه، لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

قالوا: ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل، وتصح التوبة منه؛ فإن ذلك محض حق الله، فالتوبة منه ممكنة، وأما حق الآدمي: فالتوبة موقوفة

على أدائه إليه أو استحلاله، وقد تعذر.

حجج الجمهور على قبول التوبة من القاتل:

واحتج الجمهور بقوله تعالى: **{قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53] فهذه في حق التائب، وبقوله: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ}** [النساء: 48] فهذه في حق غير التائب، لأنه فرق بين الشرك وما دونه، وعلق المغفرة بالمشيئة، فخصص وعلق، وفي التي قبلها عمم وأطلق.

واحتجوا بقوله تعالى: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ}** [طه: 82] فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحًا، فإن الله ﷻ غفار له.

قالوا: وقد صح عن النبي ﷺ حديث الذي قتل المائة ثم تاب فنفعته توبته، وألحق بالقرية الصالحة التي خرج إليها، وصح عنه ﷺ - من حدث عبادة بن الصامت ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال - وحوله عصابة من أصحابه: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فستره الله عليه، فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه ... فبايعناه على ذلك**» قالوا: وقد قال ﷺ - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «**ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي**

شيئًا، لقيتك بقرابها مغفرة»، وقال صصص: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»**، وقال: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»**، وقال: «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»**، وفي حديث الشفاعة: «**أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**، وفيه يقول الله تعالى: «**وعزتي وجلالي، لأخرجن من الناس من قال لا إله إلا الله»** وأضعاف هذه النصوص كثير، تدل على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد(79). اهـ.

وهكذا نرى رأي الجمهور أقوى حجة، وهو الذي يتفق مع رحمة الله الواسعة، ومغفرته التي تسع كل الذنوب.

حكم القاتل إذا اقتص منه:

واختلفوا فيما إذا تاب القائل وسلم نفسه، فقتل قصاصًا، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

فقالت طائفة: لا يبقى عليه شيء، لأن القصاص حده، والحدود كفارة لأهلها، وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك، فكأنه قد استوفاه بنفسه، إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله.

يوضح هذا: أنه أحد الجنايتين، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شيء، كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه، فإنه لا يبقى له عليه شيء.

وقالت طائفة: المقتول قد ظلم، وفاتت عليه نفسه، ولم يستدرك ظلامته.

---

(79) «مدارج السالكين» (1/392 - 394).

والوارث إنما أدرك ثأر نفسه، وشفاء غيظه، وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظلامة استوفاها من القاتل؟

قالوا: فالحقوق في القتل ثلاثة: حق الله، وحق للمقتول، وحق للوارث، فحق الله: لا يزول إلا بالتوبة، وحق الوارث: قد استوفاه بالقتل، وهو مخير بين ثلاثة أشياء: بين القصاص، والعفو مجانًا، أو إلى مال، فلو أحله، أو أخذ منه مالًا لم يسقط حق المقتول بذلك، فكذلك إذا اقتص منه، لأنه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه، فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين؟

قالوا: ولو قال القتيل: لا تقتلوه لأطالبه بحقي يوم القيامة، فقتلوه، أكان يسقط حقه ولم يسقطه؟ فإن قلتم: يسقط، فباطل، لأنه لم يرض بإسقاطه، وإن قلتم: لا يسقط، فكيف تسقطونه إذا اقتص منه، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟

وهذه حجج كما ترى في القوة، لا تندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها.

فالصواب - والله أعلم - أن يقال: إذا تاب القاتل من حق الله، وسلم نفسه طوعًا إلى الوارث، ليستوفي منه حق موروثه: سقط عنه الحقان، وبقي حق الموروث لا يضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل: تعويض المقتول، لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله، والتوبة النصوح تهدم ما قبلها، فيعوض هذا عن مظلمته، ولا يعاقب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلمًا في الصف، ثم أسلم وحسن إسلامه، فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول، ويغفر للكافر بإسلامه، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلمًا، فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله.

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد، فعفا عنه الولي، وتاب القاتل توبة نصوحًا، فالله تعالى يقبل توبته، ويعوض المقتول.

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده، والحكم بعد ذلك لله **{إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ}** [النمل: 78][80].

* * *

(80) «المدارج» (1/398، 399).

أقسام الناس في التوبة

قال صاحب «قوت القلوب»: الناس في التوبة على أربعة أقسام، في كل قسم طائفة، لكل طائفة مقام:

1- منهم تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدث نفسه بالعود إلى المعصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيآته صالح حسناته، فهذا هو «السابق بالخيرات»، وهذه هي التوبة النصوح.

ونفس هذا هي «المطمئنة المرضية» والخبر المروي في مثل هذا «سيروا، سبق المفردون، المستهترون بذكر الله، وضع الذكر أوزارهم، فوردوا القيامة خفافًا»(81).

2- والذي يلي هذا في القرب: عبد عقده التوبة، ونيته الاستقامة، لا يسعى في ذنب، ولا يقصده ولا ينحوه، ولا يهتم به، وقد يبتلى بدخول الخطايا عليه من غير قصد منه، ويمتحن بالهم واللمم، فهذا من صفات المؤمنين، يرجى له الاستقامة، لأنه في طريقها، وهو ممن قال الله تعالى فيهم: **{ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ}** [النجم: 32] وداخل في وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ}** [آل عمران: 135].

ونفس هذا هي «اللوامة» التي أقسم الله تعالى بها، وهو من «المقتصدين»، وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها وغرائز

---

(81) رواه الترمذي (3596) بلفظ «سبق المفردون» دون كلمة «سيروا» وقال: حسن غريب، وصححه الحاكم (جـ1 ص485) عن أبي هريرة.

جبلاتها، وأوائل أنسابها من نبات الأرض، وتركيب الأطوار في الأرحام خلقًا من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقبه تعالى بقوله: **{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ}** [النجم: 32]، فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض، والمركبة في الأرحام بالأمشاج للاعوجاج فقال تعالى: **{فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ}** أي فهذا وصفها من بدء إنشائها، وكذلك وصف مشيج خليقته بالابتلاء في قوله: **{إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}** [الإنسان: 2] وشرح هذا يطول.

وفي مثل هذا العبد معنى الخبر الذي جاء «**المؤمن مفتن تواب**»(82) و«**المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانًا وتميل أحيانًا**»(83) فازراء هذا العبد على نفسه. ومقته لها عن معرفته بها، وترك نظره إليها، وسكونه إلى خير إن ظهر عليها: يكون من كفارات ذنوبه، لأنه من تدبر الخطاب في قوله تعال: **{فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ}**.

3- والعبد الثالث هو الذي يقرب من هذا الثاني في الحال، عبد يذنب ثم يتوب، ثم يعود للذنب، ثم يحزن عليه، بقصد له وسعي فيه، وإيثاره إياه على الطاعة، إلا إنه يسوف بالتوبة، ويحدث نفسه بالاستقامة، ويحب منازل التوابين، ويرتاح قلبه إلى مقام الصديقين، ولم يأن حينه، ولا ظهر مقامه، لأن الهوى يحركه، والعادة تجذبه، والغفلة تغمره، إلا أنه يتوب خلال

---

(82) رواه أحمد بسند ضعيف جدًا.

(83) أحمد (394/3) بلفظ: «**مثل المؤمن ...**»، وحسنه المناوي في «الفيض» (ج 8149/5).

الذنوب ويعاود، لتقدم المعتاد، فتوبة هذا فوات من وقت إلى وقت، ومثله ترجى له الاستقامة لمحاسن عمله، وتكفيرها السالف سيئته، وقد يخاف عليه الانقلاب، لمداومة خطئه.

ونفس هذا هي «المسولة»، وهو ممن خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليه، فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين: بين أن يغلب عليه وصف النفس، فيحق عليه ما سبق من القول، وبين أن ينظر إليه مولاه نظرة تجبر له كل كسر، وتغني له كل فقر، فيتداركه بمنة سابقة، فتلحقه بمنازل المقربين، لأنه سلك طريقهم، بفضله ورحمته ونيته الآخرة.

4- والعبد الرابع، أسوأ العبيد حالًا، وأعظمهم على نفسه وبالًا، وأقلهم من الله نوالًا، عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله، أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار، ويحدث نفسه به متى قدر عليه، ولا ينوي توبة، ولا يعقد استقامة، ولا يرجو وعدًا بحسن ظنه، ولا يخاف وعيدًا لتمكن أمنه، فهذا هو حقيقة الإصرار ومقام بين العتو والاستكبار، وفي مثل هذا جاء الخبر «**هلك المصرون قدمًا إلى النار**»[84].

ونفس هذا هي «الأمارة»، وروحه أبدًا من الخير فرارة، ويخاف على مثله سوء الخاتمة، لأنه في مقدماتها وسالك طريقتها، ولا يبعد منه سوء القضاء ودرك الشقاء، ولمثل هذا قيل: من سوف الله تعالى بالتوبة أكذبه، وإن اللعنة خروج من ذنب إلى أعظم منه.

وهذه الطائفة في عموم المسلمين، وهم في مشيئة الله من الفاسقين، كما قال

---

(84) ذكره في «زاد المسير» (ج 4 ص 204).

تعـالى: {وَءَاخَـرُونَ مُرۡجَـوۡنَ لِأَمۡـرِ ٱللَّهِ} أي مؤرخـون لحكمـه {إِمَّـا يُعَـذِّبُهُمۡ} بالإصرار: {وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ} [التوبة: 106] بما سبق من حسن الاختيار. نعوذ بالله تعالى من عذابه، ونسأله نعيمًا من ثوابه.

* * *

الذنوب التي يتاب منها وأقسامها

مم نتوب؟

الإنسان والخطيئة.

الذنوب ترك مأمور وفعل محظور.

ذنوب الجوارح وذنوب القلوب.

الذنوب معاصٍ وبدع.

الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية.

الذنوب المتعلقة بحقوق الله وحقوق العباد.

صغائر الذنوب وكبائرها.

حقائق حول الكبائر والصغائر.

مكفرات الذنوب.

* * *

مم نتوب؟

أقسام الذنوب والمعاصي

الأصل في التوبة: أنها لا تكون إلا عن ذنب ومعصية لله جل شأنه، ومن هنا كان علينا أن نتعرف على حقيقة الذنوب والخطايا التي نتوب منها، والتي تباعد بيننا وبين ربنا، وتحرمنا حبه ونصره، ودفاعه ومعيته وتأييده لنا في الدنيا، كما تحرمنا رضوانه ومثوبته وجنته في الآخرة.

والذنوب أو الخطايا أو المعاصي التي يقع فيها المكلفون: تنقسم إلى أقسام، وتتنوع إلى أنواع كثيرة، ينبغي أن نلقي عليها بعض الأشعة حتى تتضح حقائقها، وتتجلى الفوارق بين بعضها وبعض، لنعرف أيها أشد خطرًا وأيها أخوف على المكلف من غيره، وإن كانت كلها خطرة، ومبعدة عن الله سبحانه، وحاجبة عن الخير والفلاح بمقادير متفاوتة.

تنقسم المعاصي والذنوب والخطايا بحسب طبيعتها إلى ترك مأمور، وإلى فعل محظور، كما تنقسم بحسب موضعها وآليات اكتسابها إلى «معاصي جوارح» تؤدى بأعضاء الجسم، وإلى «معاصي قلوب» تؤدى بواسطة القلب، وقد لا تظهر للحواس.

كما تنقسم إلى معاصٍ أي مخالفات ظاهرة لأمر الله تعالى وإلى بدع يتقرب بها فاعلها إلى الله.

وتنقسم بحسب أثرها إلى ذنوب ومعاصٍ قاصرة لا تتعدى حدود مقترفها وذنوب ومعاصٍ متعدية، تتجاوز صاحبها إلى التأثير في غيره.

وتنقسم إلى ذوب تتعلق بحق الخالق فقط، وذنوب تتعلق بحقوق العباد.

وما يتعلق بحقوق العباد منه ما يتعلق بحق الفرد، ومنه ما يتعلق بحق المجتمع أو الأمة.

وتنقسم بحسب زمنها ومداها إلى ما ينتهي بمجرد الانتهاء من فعله، وإلى ما يبقى بعد ذلك مددًا تقصر أو تطول.

ثم هي تنقسم بحسب درجتها إلى كبائر وصغائر.

ولكل قسم من هذه الأقسام حكمه وأثره.

فلنبدأ ببيان هذه الأقسام وأحكامها وآثارها، وقبل ذلك نستفتح بكلمة عن الإنسان والخطيئة في نظر الإسلام.

الإنسان والخطيئة:

يولد الإنسان في الإسلام على الفطرة، طاهرًا من كل دنس، غير ملوث بأي خطيئة من الخطايا.

ولا يوجد في الإسلام ما عرف في النصرانية من أن كل إنسان يولد وفي عنقه خطيئة أبيه آدم، حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، وذلك لجملة وجوه:

أولًا: لأن آدم تاب من هذه الخطيئة، وتقبل الله توبته، وغسل منها نهائيًا كما وضح ذلك القرآن: **{وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ}** [طه: 121، 122] **{فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}** [البقرة: 37].

وثانيًا: لأن عدالة الله لا تحمل أحدًا وزر غيره، ولو كان هذا الأحد أباه الذي هو من صلبه، فكيف يتحمل الإنسان وزر خطيئة، لم يشهدها ولا آباؤه، وأجداده، بل مرت عليها ألوف السنين التي لا يعلمها إلا الله يقول تعالى: **{وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ}** [الأنعام: 164]، **{كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ}** [المدثر: 38] بل أعلن القرآن: أن هذه القاعدة مقررة من قبل في صحف إبراهيم وموسى، كما قال تعالى **{أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ 36 وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ 37 أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ}** [النجم: 36 - 38].

إنما الإنسان هو الذي يكتسب خطاياه بإرادته وقدرته هو، باختياره وسعيه هو، فهو وحده يتحمل مسئوليتها، ومن شاركه فيها بإغراء أو تحريض أو تسهيل أو معاونة بأي صورة من الصور، فهو يتحمل معه بقدر إسهامه.

وثالثًا: لأن الواقع المشاهد أن الإنسان يولد على الفطرة السليمة، التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة قابلة للخير قبولها للشر، مستعدة للتقوى استعدادها للفجور، وإنما تؤثر فيه البيئة والتربية، وإن كان ذلك لا يعفيه من المسؤولية في وجوب تزكية نفسه، وإبعادها عن التدسية والتدنيس كما قال تعالى: **{وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا 8 قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}** [الشمس: 7 - 10]، وقال ززز: **{فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا}** [الروم: 30]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**كل مولود يولد على الفطرة**» متفق عليه.

ورابعًا: لأن الخطيئة لا تعبر خطيئة في نظر الإسلام إلا إذا توافر فيها عنصر القصد والاختيار. لهذا رفع الإثم عن الناسي والمخطئ والمكره، كما جاء في الحديث: «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا**

عليه».

وفي القرآن إن الله علم المسلمين الدعاء في خاتمة سورة البقرة، فكان منه: **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ}** [البقرة: 286].

وجاء في «الصحيح» عن ابن عباس أن الله تعالى قال: **«قد أجبت»**.

وفي القرآن أيضًا: **{وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ}** [الأحزاب: 5].

وفيه فيمن قال كلمة الكفر بلسانه تحت وطأة التعذيب: **{إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ}** [النحل: 106].

بل في القرآن أن من ارتكب فعلًا بإرادته تحت ضغط الضرورة القاهرة، مثل ضرورة الجوع، فإن الله قد رفع عنه الإثم، كما قال تعالى: **{فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ}** [الأنعام: 145]، **{فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ}** [البقرة: 173].

فكيف يحمل الإنسان خطيئة لم يرتكبها ولم يشدها، ولم ينوها، وليس له بها أدنى علاقة؟؟!!

* * *

الذنوب ترك مأمور وفعل محظور

تنقسم الذنوب أول ما تنقسم إلى قسمين: ترك المأمور، وفعل المحظور.

وكثير من الناس يحسبون أن الذنوب إنما هي فعل المحظورات والمحرمات فقط، ناسين أن أول معصية عصي الله بها لم تكن فعل محظور، بل ترك مأمور، وهي معصية إبليس، فقد أمره الله سبحانه بالسجود لآدم الذي خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، فخالف أمر الله تباركت أسماؤه، وجل ثناؤه، كما قال تعالى: **{وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ}** [البقرة: 34].

وكانت المعصية الثانية فعل محظور نهى الله عنه، وهي معصية آدم، فقد نهاه الله وزوجه عن الأكل من الشجرة، بعد أن أسكنهما الجنة، وقال لهما: **{وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}** [البقرة: 35].

ولكن آدم سسس غلب عليه ضعف البشر، فنسي، ووهن عزمه أمام إغراء إبليس وقسمه له: إني لك لمن الناصحين، مستعينًا في إغوائه بغرائز الإنسان في تزيين المعصية له، إذ قال له: **{هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ}** [طه: 120].

واستجاب آدم لوسوسة الشيطان، وأكل وأكلت معه زوجه من الشجرة المنهي عنها كما قال الله تعالى: **{فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ 36**

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [البقرة: 36، 37].

وهكذا نرى الذنوب والخطايا تتنوع إلى ترك ما أمر الله به، أو فعل ما نهى الله عنه.

وما أمر بفعله درجات بعضها فوق بعض.

فأعظم ما أمر الله به: التوحيد والإيمان، وتركه هو الشرك والكفر الأكبر.

ويأتي بعده الفرائض الركنية، التي هي أركان الإسلام، ومبانيه العظام، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، فترك أي واحدة من هذه الفرائض العظيمة، والشعائر المقدسة، من أعظم الذنوب، وأكبر الآثام عند الله.

وهي فيما بينها متفاوتة، فأعظمها: الصلاة، فهي عماد الدين، وعلامة المؤمنين، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر، وقد جعل الله تركها من سمات الكافرين: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ}** [المرسلات: 48].

كما جعل أداءها بكسل وتثاقل من صفات المنافقين: **{وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ}** [النساء: 142].

وجعل سبحانه الويل لمن سها عنها حتى أخرها عن وقتها: **{فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ 4 ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ}** [الماعون: 4، 5]، حتى ذهب من ذهب من أئمة المسلمين إلى أن تارك الصلاة كافر، مارق من الملة، خارج على الأمة.

وبعد الصلاة: فريضة الزكاة التي قرنها الله بها في القرآن في ثمانية وعشرين موضعًا، وفي السنة في عشرات الأحاديث، حتى قال أبو بكر: والله

لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

وقال ابن مسعود: الزكاة قنطرة الإسلام، من عبر عليها نجا، ومن تخلف عنها هلك.

ثم يجئ بعد الزكاة: صوم رمضان، الذي كتبه الله على المؤمنين، فيدع المسلم طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله، إيمانًا واحتسابًا، هذا الشهر من كل عام **{فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ}** [البقرة: 185].

وختام هذا الفرائض الشعائرية هو: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو فرض في العمر مرة واحدة، تيسيرًا من الله على عباده، وهو فرض على من استطاع إليه سبيلًا، وملك نفقة السفر ونفقة الإقامة أقصر مدة ممكنة للحج وهو خمسة أيام: من يوم الثامن من ذي الحجة إلى يوم الثاني عشر منه، وما يلزم لذلك من أيام قبله وبعده، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن ترك فريضة من الفرائض منكرًا لفرضيتها أو مستخفًا ومستهزئًا بها، فقد ارتد عن الإسلام لأنه أنكر أمرًا بينًا معلومًا من الدين بالضرورة، ولا يكون ذلك إلا بتكذيب الله ورسوله، والكفر بهما.

ومن ترك واحدة منها، اتباعًا لهوى، أو حبًا للدنيا، أو كسلًا أو شحًا أو تهاونًا، أو نحو ذلك، فقد فسق عن أمر الله، واقترف إثمًا عظيمًا.

أما من تركهن جميعًا، فماذا بقي له من الإسلام إلا اسمه، ويخشى أن يفضي به ذلك إلى الكفر البواح، والعياذ بالله، فإن المعاصي بريد الكفر، ولا سيما هذه المعاصي الكبار.

وبعد ذلك تأتي الفرائض الأخرى: مثل بر الوالدين، الذي جعله القرآن بعد عبادة الله وحده كما قال تعالى: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا}** [الإسراء: 23].

ومثل صلة الأرحام، التي قال الله فيها: **{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا}** [النساء: 1]، وقوله: **{قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ}** [البقرة: 215]، وقوله: **{فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ 22 أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ}** [محمد: 22، 23].

ومثل الإحسان إلى اليتامى والمساكين والجيران وغيرهم من أصحاب الحقوق، كما في آية «الحقوق العشرة» كما سماها العلماء، وهي قوله تعالى: **{وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا}** [النساء: 36].

إلى غير ذلك من المأمورات، التي تتعلق بحق الله، وحق النفس، وحق الأسرة، وحق المجتمع، وحق الإنسان، وحق الحيوان. وحق الكون.

ومن المقرر هنا: أن المأمورات المتعلقة بفرض العين - وهو ما يجب عينًا على كل إنسان، أو على إنسان بعينه، مقدم على فرض الكفاية، وهو الذي يجب على مجموع الأمة بالتكافل، مثل تفوقها العلمي أو التكنولوجي أو العسكري، فإذا فرطت الأمة في هذه الفرائض الكفائية كان الإثم عليها جميعًا، كل بمقدار مسؤوليته وثقافته ومكنته.

ومن الذنوب التركية: ذنوب في غاية العظم، ونهاية الخطر، لا يتنبه إليها الكثيرون من الناس، وهي التي تتعلق بترك فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمة، وبتضييعها تضيع الأمة، ويأثم أبناؤها جميعًا، كل على قدر علمه وقدرته ومكانته في الناس.

وذلك مثل ترك تحكيم شريعة الله في حياة الناس، وعدم الحكم بما أنزل الله، وظلم الفقراء، والمستضعفين من العمال والفلاحين، ومثل ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سيما المنكرات الكبرى مثل: إباحة المسكرات، وإباحة الربا والزنى وإشاعة الخلاعة، والتكشف، وظهور الكاسيات العاريات، المميلات المائلات.

ومثل: ترك الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم، كما نرى اليوم خلال الأمم التي لا تعرف عن الإسلام شيئًا، أو تعرف صورة مشوهة منفرة عنه، والمسلمون عامة - والعرب خاصة - مسؤولون عن توصيل الدعوة سليمة مشوقة إلى هؤلاء.

ومثل: ترك إقامة العدل بين الناس، وإيتاء كل ذي حق حقه، وإقامة الموازين القسط بين الحاكم والمحكوم، ورعاية حقوق الإنسان، وتمكين كل إنسان أن يقول رأيه بصراحة، ويدلي بصوته بنزاهة، ويرشح نفسه إن أراد، ويعارض ما يراه خطأً إن شاء.

ومثل ترك أعداء الأمة يأكلون حقوقها، ويحتلون أرضها، ويتحكمون في رقاب أهلها، وترك الدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء، والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك

وليًا، واجعل لنا من لدنك نصيرًا.

ومثل ترك الأمة ممزقة، لا تجمعها راية، ولا تضمها رابطة قوية، مع إيجاب الإسلام، أن تكون مرجعيتها واحدة، ودارها واحدة، وقيادتها واحدة.

هذه آثام وذنوب يغفل آحاد الناس عنها لأنها لا تخصهم شخصيًا، ولكنهم مسؤولون عنها بصفتهم أعضاء في جسم الأمة.

وفي مقابل ترك هذه المأمورات: يوجد فعل المحظورات، وهي المحرمات التي حرمها الله تعالى: من المأكولات والمشروبات والملبوسات والأدوات والمعاملات والتصرفات.

وقد أسرف أهل الجاهلية في التحليل والتحريم، فحرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله كما قال تعالى: **{قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}** [الأنعام: 140].

وقال تعالى: **{قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ}** [يونس: 59].

{وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [النحل: 116].

ولقد بين القرآن أن من أوصاف رسول الله صصص المعروفة عند أهل الكتاب: «التوراة والإنجيل» أنه: **{وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ}** [الأعراف: 157].

فالتحريم في الإسلام يتبع الخبث والضرر، وليس كما كان في اليهودية،

حيث حرم الله عليهم بعض الطيبات، عقوبة من الله لهم على بغيهم وتجاوزاتهم، كما قال تعالى: **{فَبِظُلۡمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا 160 وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ}** [النساء: 160، 161].

ومن المقرر عند المسلمين: أن الأصل في الأشياء - ولا سيما المنافع - والتصرفات، ولا سيما الدنيوية والعادية، منها: الإذن والإباحة - فلا يسأل المسلم: لماذا أبيح هذا؟ لأنه هو الأصل، وما جاء على الأصل لا يسأل عن علته، إنما يسأل: لماذا حرم هذا؟

وقد بين الإسلام الحلال من الحرام، كما جاء في الحديث المتفق عليه: **«الحلال بين، والحرام بين، وبينهما كثير من المشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه»**.

وقد كتبنا كتابنا «الحلال والحرام في الإسلام» لنبين للناس ما حرم على المسلم في حياته الفردية الخاصة، وحياته الأسرية، وحياته الاجتماعية، حتى لا يسقط المسلم في هوة المحرمات من حيث لا يدري.

* * *

ذنوب الجوارح وذنوب القلوب

كثير من الناس لا يكادون يعرفون من المعاصي والذنوب، إلا ما يدركه الحس، وما يتعلق بالجوارح الظاهرة، من معاصي الأيدي والأرجل، والأعين والآذان، والألسنة والأنوف، ونحوها مما يتصل بشهوتي البطن والفرج، والغرائز الدنيا للإنسان.

ولا يكاد يخطر ببال هؤلاء: الذنوب والمعاصي الأخرى التي تتعلق بالقلوب والأفئدة، والتي لا تدخل، فيما تراه الأبصار، أو تسمعه الآذان، أو تلمسه الأيدي، أو تشمه الأنوف، أو تتذوقه الألسنة.

في القسم الأول تقع معاصي العين من النظر إلى ما حرم الله، من العورات، ومن النساء غير المحارم.

ومعاصي الأذن من الاستماع إلى ما حرم الله من آفات اللسان، فالمستمع شريك المتكلم.

ومعاصي اللسان، من الكلام بما حرم الله من الآفات التي بلغ بها الإمام الغزالي عشرين آفة: من الكذب، والغيبة، والنميمة، والسخرية، واليمين الفاجرة، والوعد الكاذب، والخوض في الباطل، والكلام فيما لا يعني، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وشهادة الزور، والنياحة، واللعن والسب ... إلخ.

ومعاصي اليد من البطش والضرب بغير حق، والقتل، ومصافحة أعداء الله، وكتابة ما لا يجوز كتابته، مما يروج الباطل أو يشيع الفاحشة، وينشر

الفساد.

ومعاصي الرجل، من المشي إلى معصية الله، وإلى زيارة ظالم أو فاجر، ومن السفر في إثم وعدوان.

ومعاصي الفرج، من الزنى وعمل قوم لوط، وإتيان امرأته في دبرها، أو في المحيض، وهو أذى كما قال الله.

ومعاصي البطن، من الأكل والشرب مما حرم الله، مثل أكل الخنزير، وشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وتناول التبغ «التدخين» وأكل المال الحرام من الربا، أو الميسر، أو بيع المحرمات، أو الاحتكار، أو قبول الرشوة أو غيرها من وسائل أكل مال الناس بالباطل.

وهذه الأعمال كلها محرمات ومعاص معلومة، وبعضها يعتبر من عظائم الآثام، وكبائر الذنوب، ولكنها جميعًا تدخل في المعاصي الظاهرة، أو معاصي الجوارح، أو ظاهر الإثم، والمسلم مأمور أن يجتنب ظاهر الإثم وباطنه جميعًا، كما قال تعالى: **{وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ}** [الأنعام: 120].

بل إن المعاصي الباطنة أشد خطرًا من المعاصي الظاهرة، وبعبارة أخرى: معاصي القلوب أشد خطرًا من معاصي الجوارح، كما أن طاعات القلوب أهم وأعظم من طاعات الجوارح، حتى إن أعمال الجوارح كلها لا تقبل إلا بعمل قلبي، وهو النية والإخلاص.

ونقصد بمعاصي القلوب ما كانت آلته القلب، مثل: الكبر، العجب، الغرور، الرياء، الشح، حب الدنيا، حب المال والجاه، الحسد، البغضاء،

الغضب، ونحوها، مما سماه الإمام الغزالي في «إحيائه»: المهلكات، أخذاً من الحديث الشريف: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**».

وإنما اشتد خطر هذه المعاصي والذنوب لعدة أمور:

أولها: أنها تتعلق بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان، فليس الإنسان هو الغلاف الجسدي الطيني الذي يأكل ويشرب وينمو، بل هو الجوهرة التي تسكنه، والتي نسميها: القلب أو الروح أو الفؤاد، أو ما شئت من الأسماء. وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» متفق عليه عن النعمان بن بشير.

وقال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» رواه مسلم.

وجعل القرآن أساس النجاة في الآخرة هو سلامة القلب، كما قال تعالى على لسان إبراهيم: **{وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ 87 يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ}** [الشعراء: 87 - 89].

وسلامة القلب تعني: سلامته من الشرك جليه وخفيه، ومن النفاق أكبره، وأصغره، ومن الآفات الأخرى التي تلوثه، من الكبر والحسد والحقد، وغيرها.

وقال ابن القيم: سلامته من خمسة أشياء: من الشرك الذي يناقض التوحيد، ومن البدعة التي تناقض السنة، ومن الشهوة التي تخالف الأمر، ومن الغفلة

التي تناقض الذكر، ومن الهوى الذي يناقض التجريد والإخلاص.

ثانيها: أن هذه الذنوب والآفات القلبية، هي التي تدفع إلى معاصي الجوارح، فكل هذه المعاصي الظاهرة إنا يدفع إليها: اتباع الهوى، أو حب الدنيا، أو الحسد، أو الكبر، أو حب المال والثروة، أو حب الجاه والشهرة، أو غير ذلك.

حتى الكفر نفسه، كثيرًا ما يدفع إليه الحسد، كما حدث لليهود، فقد قال تعالى: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ}** [البقرة: 109].

أو يدفع إليها الكبر والعلو في الأرض، كما قال تعالى عن فرعون وملئه وموقفهم من آيات موسى سسس: **{وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ}** [النمل: 14].

أو حب الدنيا وزينتها، كما رأينا ذلك في قصة هرقل ملك الروم، وكيف تبين له صدق الرسول صصص في دعوته، وصحة نبوته، ثم لما هاج عليه القسس، غلّب حب ملكه على اتباع الحق، فباء بإثمه وإثم رعيته.

وإذا نظرت إلى من يقتل نفسًا بغير حق، وجدت وراءه دافعًا نفسيًا أو قلبيًا، من حقد أو غضب، أو حب لدنيا، حتى إن أول جريمة قتل في تاريخ البشرية، كان سببها الحسد، وذلك في قصة ابني آدم **{إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ}** [المائدة: 27]، إلى أن قال تعالى: **{فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}** [المائدة: 30].

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرة من شهادة زور أو نميمة، أو غيبة أو غيرها، فلابد أن وراء تلك المعاصي شهوة نفسية، وفي هذا جاء الحديث: **«إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»**(85).

ثالثها: إن المعاصي الظاهرة التي سببها ضعف الإنسان وغفلته، سرعان ما يتوب منها، بخلاف المعاصي الباطنة، التي سببها فساد القلوب، وتمكن الشر منها، فقلما يتوب صاحبها منها، ويرجع عنها.

وهذا هو الفارق بين معصية آدم، ومعصية إبليس.

معصية آدم كانت معصية جارحة، حين أكل من الشجرة، ومعصية إبليس كانت معصية قلب، حين أبى واستكبر، وكان من الكافرين.

معصية آدم كانت زلة عارضة، نتيجة النسيان وضعف الإرادة، أما معصية إبليس فكانت غائرة متمكنة، ساكنة في أعماقه.

لهذا ما أسرع ما أدرك آدم خطأه واعترف بزلته، وقرع باب ربه نادمًا تائبًا هو وزوجته **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23].

أما إبليس، فاستمر في غلوائه، متمردًا على ربه، مجادلًا بالباطل، حين قال له: **{يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ 75 قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ}** [ص: 75، 76].

---

(85) رواه أبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمر، كما في «صحيح الجامع الصغير» (2678).

ولهذا كانت عاقبة آدم: {**فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**} [البقرة: 37].

وكانت عاقبة إبليس: {**قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ 77 وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ**} [ص: 77، 78].

رابعًا: وهذا ثمرة للوجوه السابقة، وهو تشديد الشرع في الترهيب من معاصي القلوب، وآفات النفوس لشدة خطرها، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» رواه مسلم عن ابن مسعود، وقوله: «**دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(86).

وقوله: «**لا تغضب**» وكررها ثلاثًا، لمن قال له: أوصني(87).

وقوله في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك فيه غيري، تركته وشركه**»(88).

وقوله: «**إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»(89).

* * *

---

(86) رواه البزار عن الزبير بإسناد جيد كما قال المنذري. انظر: «المنتقى» (1615)، والهيثمي (30/8).

(87) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(88) رواه مسلم عن أبي هريرة، وفي معناه عدة أحاديث - انظر: «المنقى» (1651 - 1654).

(89) رواه مسلم عن جابر.

الذنوب معاص وبدع

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى معاص وبدع، وكل منهما ارتكاب لما يسخط الله تعالى، وشرود عن صراطه المستقيم.

وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه العرباض بن سارية أن النبي صصص قال: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[90].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من أحدث في أمرنا** «أي في ديننا» **ما ليس منه فهو رد**» [91] أي: مردود عليه، غير مقبول منه، لأنه تقرب إلى الله بما لم يأمر به، وشرع في الدين ما لم يأذن به الله، فالتعبد في الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين:

الأولى: ألا يعبد إلا الله.

والثانية: ألا يعبد الله إلا بما شرعه.

والمبتدع عبد الله تعالى بما لم يشرعه.

والتوبة من البدع واجبة، كالتوبة من جميع المعاصي.

وقد قال السلف: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن مرتكب المعصية يشعر أنه اقترف ذنبًا ومخالفة لأمر الله، بخلاف فاعل البدعة.

بل الحقيقة أن البدع نوع من المعاصي، ولكنها معاصٍ لها صفة خاصة،

---

(90) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح، وهو من أحاديث «الأربعين النووية».

(91) متفق عليه عن عائشة.

فإن مرتكبيها يتقربون إلى الله بفعلها، ويعتقدون في أنفسهم أنهم بهذه البدع أقرب إلى الله تعالى ممن ينكرونها عليهم.

وهذا هو خطر البدعة حقًا؛ فإن صاحبها ينطبق عليه قول الله تعالى: {**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا**} [فاطر: 8].

وقوله تعالى: {**ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا**} [الكهف: 104].

ولهذا كانت خشية السلف من البدعة أكبر من خشيتهم من المعصية، وكان تحذيرهم من البدعة أشد، لأن صاحب المعصية سرعان ما يتوب من معصيته، فهو يعلم أنها معصية، وهي تؤرقه وتعذب ضميره، ويظل هذا الألم النفسي، وهذا التعذيب الوجداني يصاحبه، حتى يتحول إلى ثورة على حياته، وهذه الثورة هي التوبة.

أما صاحب البدعة، فهو مستريح إلى سلوكه، راض عن نفسه، لا يشعر بألم الذنب، لأنه في نظر نفسه غير مذنب، ولا مخالف، بل هو متعبد، وربما مبالغ في العبادة، بل ربما كانت عبادته الظاهرة أكثر وأعظم من عبادات الكثيرين من المتدينين، كما جاء في الحديث عن الخوارج: «**يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**»(92).

والبدعة ـ كما هو معلوم ـ بدعتان، أو نوعان:

بدعة قولية أو اعتقادية، أو بتعبير عصرنا، فكرية، تمثل انحرافًا في الاعتقاد أو في الفكر عن المنهج السوي الذي جاء به القرآن والسنة، واستقر

---

(92) متفق عليه.

عليه سلف الأمة، وخير قرونها، وهي شر النوعين وأخطرهما.

وذلك مثل بدع الفرق الإسلامية المنحرفة عن السنة والجماعة، مثل «الخوارج والشيعة» - وخصوصًا الغلاة منهم - «والجبرية والقدرية والمرجئة»، وغيرهم على تفاوت بينهم في مدى القرب أو البعد من حقيقة الإسلام، ونهجه القويم في العقيدة والسلوك، ومثل الدعوة إلى «العلمانية» في عصرنا، والقول بأن لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة، والدعوة إلى إلغاء الطلاق، وتعدد الزوجات، أو إلى التسوية بين الابن والبنت في الميراث.

وبعض هذه البدع قد يغلظ ويكبر، حتى ينتهي إلى درجة الكفر، والعياذ بالله.

فالقول بأن البعث في الآخرة روحاني لا جسماني، وإنه لا توجد جنة حسية، ولا نار حسية، ولا نعيم مادي، ولا عذاب مادي.

أو القول بأن الله لا يعلم جزئيات ما يجري في الكون.

أو القول بحلول الله في بعض خلقه، أو بعدم الثنائية في الوجود، بمعنى أنه لا يوجد خالق ومخلوق، ورب ومربوب، وعابد ومعبود، إنما هو وجود واحد.

وهو ظاهر ما ذهب إليه الحلاج في نظرية الحلول، وابن عربي في نظرية وحدة الوجود.

وقول بعض الناس في عصرنا: إن القرآن بمجرد نزوله انتقل من الإلهية إلى البشرية، وأصبح نصًا بشريًا! وقول بعضهم بالتسوية بين الأولاد في الميراث لا فرق بين ذكر وأنثى.

والنوع الثاني هو: البدعة العملية كأن يخترع عبادة من عنده لم يشرعها الله ولا رسوله، أو يضيف إلى العبادة المشروعة ما ليس منها مثل «صلاة الرغائب» التي ابتدعها بعض الناس في أول كل شهر رجب.

ومثل الصيام عن الكلام تعبدًا، أو الصيام عن أكل اللحوم أو كل ما كان من ذي روح، تعبدًا وتقربًا إلى الله، مثل أكل البيض وشرب اللبن، وتناول منتجات الألبان.

ومثل الصيام أو الإمساك عن الطعام والشراب قبل الفجر بثلث ساعة أو عشر دقائق، أو نحو ذلك احتياطًا، أو الإمساك عن المبادة إلى الإفطار بعد المغرب مبالغة في الاحتياط.

والبدعة العملية قسمان أيضًا: إيجابية وسلبية، وبعبارة أخرى: فعلية وتركية، والفعلية هي التي تتناول عملًا بالفعل، مثل الصلاة أو الصيام أو الذكر، أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله، وهو غير مشروع، ويدخل فيما شرع من الدين مما لم يأذن به الله سبحانه.

والتركية: ما كانت تركًا لعمل مشروع، واجب أو مستحب أو مباح، وذلك مثل ترك الزواج أو ترك النوم بالليل، أو ترك الإفطار في بعض الأيام - مثل الثلاثة الذين أنكر عليهم النبي صصص الذين قال أحدهم: أنا أقوم الليل فلا أنام، وقال الثاني: أنا أصوم الدهر فلا أفطر، وقال الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ... فبلغ النبي صصص مقالتهم، فخطبهم قائلًا: «**إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» متفق عليه عن أنس.

* * *

الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية

كما أن من الطاعات والحسنات ما هو قاصر لا يؤثر إلا في صاحبه مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والذكر وتلاوة القرآن، ومنها ما يتعدى نفعه إلى الغير، مثل الزكاة والصدقات وبر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الجار والمسكين وابن السبيل.

فكذلك الذنوب والمعاصي والسيئات، منها ما هو قاصر لا يؤثر إلا في صاحبه، ولا يتعدي تأثيره إلى غيره.

ومنها ما هو متعدي التأثير بصورة أو بأخرى، إلى مدى يقرب أو يبعد.

والذنوب المتعدية التأثير، قد يكون تعديها أفقيًا، وقد يكون رأسيًا، وبعبارة أخرى: قد يكون التعدي في سعة المكان، وقد يكون في امتداد الزمان.

الذنوب الممتدة في المكان:

روى البخاري في حديث سمرة بن جندب الطويل، الذي رأى فيه النبي صصص عقوبات أرباب الذنوب في الآخرة، وكيف يعذبون عليها، وقص في الصباح على أصحابه هذه الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق ووحي كما هو معلوم، ومما جاء في هذا الحديث أن الملكين اللذين ابتعثاه قالا له: «**انطلق، انطلق، قال: فأتينا على رجل مستلق على قفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، قال: فما يفرغ من ذلك الجانب، حتى**

يصح ذلك الجانب، كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى ...».

ثم بعد أن رأى ما رأى سأل الرسول الملكين أن يفسرا له ما رآه، فكان مما قالا له:

«وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق».

فهذا الكذاب يعذب هذا العذاب الشنيع الأليم، لأن كذبته لا تقف عند شخص أو شخصين، بل إنها لتتسع وتنتشر حتى تبلغ الآفاق، مشرقة ومغربة.

وأبرز من ينطبق عليه هذا في عصرنا: الصحفيون الذين ينشرون الأكاذيب، فتطير في العالم كله، وتنقلها وكالات الأنباء، فإذا هي تملأ الدنيا.

وكذلك نجد معظم ذنوب أهل القلم، وأهل الفن، وأهل الإعلام، في عصرنا من هذا النوع المتعدي، الذي يمتد ويتسع أفقيًا، بما يملكه عصرنا من وسائل وأدوات قادرة على توسيع نطاق التأثير، وتبليغه إلى آفاق العالم.

ومن الذنوب المتعدية: ذنوب الأمراء والولاة والحكام، الذين يظلمون العباد، ويطغون في البلاد، فيكثرون فيها الفساد، وبخاصة حكام زمننا الذين وفرت لهم علوم العصر وتكنولوجيته: القدرة الهائلة على التأثير في الشعوب، وتكوين أفكارها وأذواقها وميولها، عن طريق مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام.

وإذا كان قد روى في الحديث «**أن يومًا من والٍ أو إمام عادل: أفضل**

من عبادة ستين سنة» وذلك لما قد يزيل فيه من مظالم، وما يقيم فيه من حدود، وما يرد فيه من حقوق، وما يقرر فيه من أحكام عادلة، ومبادئ سامية، وقواعد لحماية الأنفس والأعراض والأموال، وقواعد لرعاية العقائد والأخلاق والآداب، وحماية المجتمع من الرذائل والمفاسد والشرور ... فلا غرو أن يكون اليوم الواحد من هذا الحاكم العادل يوازي، بل يفضل عبادة ستين سنة من غيره.

إذا كان هذا في الوالي العادل لمقابله: أن يومًا من والٍ أو حاكم ظالم أسوأ من ذنوب ستين سنة من غيره، وذلك لما قد يصدر في هذا اليوم الواحد من قرارات جائرة، وما يقرره من قواعد ومناهج وأوامر مضرة بالعقائد، أو مدمرة للأخلاق، أو مجرئة على معاصي الله، ناشرة للرذائل، أو مشيعة للشبهات والأفكار المضلة أو مروجة للأباطيل المستوردة من خارج الأمة ... إلى غير ذلك مما يتصور ظهوره وحدوثه على أيدي حكام اليوم، ولا سيما في البلدان التي للحكام فيها سلطة شبه مطلقة.

إن هؤلاء لا يحملون وزر أنفسهم فقط، بل يحملون وزر شعوبهم الذين أضلوهم عن الحق، وزينوا لهم الباطل، حتى اتبعوهم في ضلالهم الفكري، وغيهم السلوكي، وقد قيل قديمًا: الناس على دين ملوكهم! ولم يكن لملوك الأمس من التأثير المباشر وغير المباشر: ما لحكام اليوم.

ولهذا أرسل النبي صصص رسائله إلى ملوك عصره، وأمرائه ودعاهم إلى الإسلام، وحملهم - إذا لم يستجيبوا لدعوته - إثمهم وإثم رعيتهم معهم فهو قد حمل كسرى إثم الفرس، وحمل قيصر إثم البريسيين أي الفلاحين والجماهير الغافلة من الروم ... وحمل المقوقس في مصر إثم القبط ... وهكذا.

والقرآن الكريم يحمل الدعاة إلى الضلال والصادين عن سبيل الله وزر من أضلوهم وصدوهم، كما قال تعالى: {**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ**} [النحل: 88].

{**لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ**} [النحل: 25].

{**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ 12 وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ**} [العنكبوت: 12، 13].

ووزر كل زعيم أو حاكم من هؤلاء الذين زينوا لشعوبهم الباطل، وأضلوهم عن الحق، وصدوهم عن السبل، يتفاوت بتفاوت عدد من أضلهم، ومدى هذا الضلال، ومدى تأثيره فيه، فوال في محافظة، أو أمير في بلد صغير، ليس كرئيس في بلد مقداره سبعون مليونًا، أو مائة مليون، أو مائتا مليون، أو ألف مليون، وحاكم متسلط على شعبه، يقودهم بعصاه، أو بسيفه، ليس كحاكم يشاركه الناس في السلطة، ولهذا كان فرعون المتأله في الأرض أشد عذابًا من غيره، كما قال تعالى: {**وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ**} [غافر: 46].

وما ذلك إلا لدوره الأكبر في الإضلال والإفساد والطغيان، قال تعالى: {**وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ**} [طه: 79]، {**فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ**} [الزخرف: 54]، {**يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ**} [هود: 98].

وكذا قال تعالى عن فرعون وهامان: {**وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ**

ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ} [القصص: 41].

وما يقال عن زعماء السياسة، يقال عن زعماء الفكر، من دعاة الضلالة وأئمة الكفر، ورؤوس الفتنة، الذين يسوقون الإلحاد، ويشيعون الانحلال، وينشرون الفساد: بألسنتهم وأقلامهم وأدواتهم وألحانهم وإمكاناتهم العلمية والفنية، ويجندون مواهبهم فيما يبغض الله، وما يهدي إلى النار **{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ 8 ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ 9 ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ}** [الحج: 8 - 10].

وإمام هؤلاء، وزعيمهم الأول، وقائدهم الأكبر: إبليس لعنه الله، فهو الذي قال لربه **{رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ 39 إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ}** [الحجر: 39، 40]، **{لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا 118 وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ}** [النساء: 118، 119] وهؤلاء هم جنود إبليس وتلامذته في التزيين والإغواء والإضلال.

الذنوب الممتدة في الزمان:

وكما تمتد الذنوب والخطايا أفقيًا ومكانيًا، فإنها تمتد وتتسع رأسيًا وزمانيًا، فمن الخطايا والمعاصي ما لا ينتهي بارتكابه، بل يستمر ويبقى زمنًا يقصر أو يطول، وقد يعمر قرونًا، وقد يستمر إلى يوم القيامة.

ومن هنا نقل عن السلف رررت: طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، وويل لمن إذا مات ظلت ذنوبه من بعده!

فكما أن من الناس من يموت وتبقى حسناته من بعده، تضيف عمرًا بل أعمارًا إلى عمره: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو سنة حسنة سنها، فعمل الناس بها من بعده، فله أجرها وأجر كل من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئًا.

كذلك في الجانب الآخر، نجد من سن سنة سيئة، فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، لا ينقص من أوزارهم شيئًا.

فالأول إمام في الخير والهدى، وهذا إمام في الشر والضلالة، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: 41] في مقابل من قال فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: 24].

ولهذا قال صصص: «**ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سن القتل**»(93) فهذا ابن آدم الشرير الذي قتل أخاه في فجر تاريخ البشرية: قد سن سنة القتل لمن بعده، وأيًا كان صغر هذا الكفل من كل جريمة قتل، فإنه يحمل جزءًا من ملايين الجرائم وضحايا الحروب ونحوها.

وكل من نشر ضلالة في الناس، أفسدت فكرهم، أو أوهنت إيمانهم، أو ألقت في عقولهم شبهات، سواء بالكلمة المسموعة في شريط، أو المكتوبة في صحيفة أو في كتاب، أو نقلها الناس عنه بعضهم عن بعض، فهو محاسب على هذه الضلالة، وإن مات من سنين أو عقود أو قرون.

ومثله كل من روج بدعة قولية أو عملية، فإن كل بدعة ضلالة، وكل

---

(93) رواه البخاري.

ضلالة في النار.

وكذلك كل من روَّج فسادًا خلقيًا، يجرئ الناس على الفسوق ويغريهم بالانحراف والإثم، عن طريق قصة ماجنة، أو مسرحية فاجرة، أو رقصة داعرة أو أغنية هابطة، أو مقالة ساقطة، أو صورة فاضحة، أو بذاءة واضحة، أو نحو ذلك مما يقع فيه كثير من العابثين والممثلين والمطربين والملحنين والمصورين من الرجال والنساء على السواء، من أهل القلم أو أهل الفن والإعلام.

إن الذي أفسد الحياة، وعمى الحقائق على البشر، هم شياطين الإنس، الذين أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، فسنوا للناس سننًا، ووضعوا لهم تقاليد، وهيأوا لهم مناهج، وابتدعوا لهم مؤسسات، لإغرائهم بالضلال، وثني أعنتهم عن الهدى، وإقناعهم بالباطل، وتعويقهم عن طريق الحق، وتزيين الفجور لهم، وتثبيطهم عن سبيل التقوى.

وفي هذا صحت الأحاديث النبوية: «**من سنة سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»(94).

«**من دعا إلى هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها من تبعه إلى يوم القيامة**»(95).

* * *

---

(94) رواهما مسلم.
(95)

الذنوب المتعلقة بحقوق الله
والمتعلقة بحقوق العباد

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الله ززز، وما يتعلق بحقوق العباد.

ومن الكلمات المشهورة في محيط العلماء، قولهم: حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة.

ذلك أن الله تعالى جواد كريم، عفو غفور، غني عن العالمين، بل هو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فلا عجب أن يسامح في حقه، ويعفو عمن فرط في جنبه، بأدنى رجعة إليه، أو بمجرد ابتهال وتضرع لجنابه، أو بغير شيء أصلًا إن شاء.

أما الإنسان فهو شحيح قتور بطبعه، كما قال تعالى: **{وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ}** [النساء: 128]، وقال: **{وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا}** [الإسراء: 100]، وخصوصًا في يوم القيامة، فهو يوم الأنانية المطلقة، لا يفكر كل إنسان فيه إلا في نفسه، ونجاة نفسه، وقد يحتاج إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزان حسناته، فيستحق بها دخول الجنة، وقد يثقل ميزان سيئاته بسيئة واحدة، فيدخل بها النار.

لهذا يقول كل أمرئ في هذا اليوم: نفسي نفسي: **{لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا}** [لقمان: 33] **{يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ 34 وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ 35 وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ 36 لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ}** [عبس: 34 - 37].

فما كان من الذنوب والمعاصي من حقوق الله تعالى، مثل ترك بعض

المأمورات الشخصية أو ارتكاب بعض المنهيات، مثل شرب الخمر، وسماع الملاهي، وإيذاء الحيوان، وإيذاء الإنسان نفسه، وتبذيره ماله، وارتكاب بعض المنهيات الشخصية، مثل الوشم، ووصل الشعر، ونمص الجفون، ووشر الأسنان، وعمل جراحات التجميل، التي لا ضرورة لها، وتشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، ونحوها ... فالتوبة منها تتحقق بالندم والإقلاع والعزم.

أما ما كان من حقوق العباد، ولا سيما الحقوق المالية، فلا يكفي فيه الندم، والعزم والإقلاع، بل لا بد من ردها إلى أصحابها، أو استحلالهم، أي طلب عفوهم وتنازلهم عن حقهم لله تعالى، وإلا ظلت هذه الحقوق ديونًا لأربابها في أعناق المدينين، حتى يتقاضوها يوم القيامة من حسنات خصومهم حتى يستوفوا مالهم، فإن لم تف الحسنات، طرحوا من سيئاتهم على ظالميهم حتى يأخذوا حقهم.

وهذا هو «المفلس» الذي عرفه لنا الحديث الصحيح حين قال: «**أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي: من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، ويعطى هذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أحد من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»(96).

فقد كان هذا - بما له من طاعات وحسنات - في عداد الأغنياء وأصحاب الرصيد، ولكن رصيده من الصالحات قد ضاع كله في قضاء حقوق الناس

(96) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

في يوم لا يسامح فيه أحد أحدًا، ولا يتقاضى الناس حقوقهم إلا بعملة واحدة، هي الحسنات والسيئات.

ومن أجل هذا أمر النبي صصص كل من ظلم الناس شيئًا، أو أخذ منهم حقًا من حقوقهم المادية أو الأدبية: أن يصفي حسابه مع من ظلمه في الدنيا، قبل أن يصفّى في الآخرة، وذلك بأن يتحلل من صاحب الحق، أو صاحب المظلمة.

ومعنى التحلل: طلب المسامحة والعفو منه، أو المصالحة على شيء يقبله.

وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء، فليتحلله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه**»(97).

شمل الحديث الحقوق الأدبية مثل النيل من عرض الإنسان، وهو ما نعبر عنه اليوم بالكرامة والسمعة، سواء في نفسه أم في أهله ومن يعير بهم، كما شمل الحقوق المادية والمالية، ولذا قال: «**أو من شيء**».

ولخطورة الحقوق المالية قال صصص: «**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين**»(98).

فالشهادة في سبيل الله، هي أعلى ما يطلبه المسلم من ربه، ومنزلة الشهيد عند الله لا تدانيها منزلة بعد منزلة النبوة والصديقية، ومع هذا يغفر الله بها كل

---

(97) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(98) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو.

الذنوب ما عدا «الديون» فإن أصحابها يطالبون بها يوم الحساب، وإن كان المأمول من سعة فضل الله تعالى أن يغطّي ثواب الشهادة ما يستحقه الدائنون.

وعن أبي قتادة أن رسول الله صصص قام فيهم، فذكر أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله: أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قلت في سبيل الله تكفر عنّي خطاياي؟ فقال رسول الله صصص: «**نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر**» ثم قال رسول الله: «**كيف قلت؟**» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صصص: «**نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين، فإن جبرائيل قال لي ذلك**»(99).

فانظر كيف استدرك أمين الوحي جبريل سسس، على النبي صصص فيه، فصحح الرسول الكريم ما قاله للرجل السائل عن الشهادة، واستثنى «الدَّيْنَ» مما تكفره من الخطايا.

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال: كان رسول الله صصص، قاعدًا حيث توضع الجنائز، فرفع رأسه قبل السماء، ثم خفض بصره، فوضع يده على جبهته، فقال: «**سبحان الله! سبحان الله! ما أنزل من التشديد**»؟! قال: فعرفنا وسكتنا، حتى إذا كان الغد، سألت رسول الله صصص فقلت: ما التشديد الذي نزل؟ قال: «**في الدين، والذي نفسي بيده، لو قتل رجل في سبيل الله، ثم عاش، ثم قتل، ثم عاش، ثم قتل: ما دخل الجنة حتى يقضي دينه!**»(100).

---

(99) رواه مسلم عن أبي قتادة.

(100) رواه النسائي في «كتاب البيوع» باب التغليظ في الدين (314/7، 315)، والحاكم

فهل رأيت تشديدًا أبلغ وأعظم من هذا التشديد في أمر الدين؟ وهذا كله يدلنا بجلاء على أهمية حقوق العباد، والذنوب المتعلقة بها، ولا سيما الحقوق المالية.

يؤكد هذا ما جاء من أحاديث في شأن بعض الشهداء الذين غلّوا من الغنائم قبل قسمتها، فرآهم النبي عليه الصلاة والسلام وقد اشتعل ما أخذوه نارًا تحرقهم، لأنهم أخذوا ما ليس لهم بحق من المال العام.

فعن أبي هريرة أن رجلًا قتل في غزوة خيبر، فقال الناس: هنيئًا له الجنة: «أي لأنه أدرك درجة الشهادة في سبيل الله» فقال رسول الله صصص: **«كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتمل عليه نارًا»**(101).

وعن ابن عباس قال: حدثني عمر، قال: لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من صحابة النبي صصص، فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله صصص: **«كلا، إني رأيته في النار، في بردة غلّها - أو عباءة»**(102).

وهذا يدلنا على أن الحقوق العامة كالحقوق الخاصة، لا يجوز أخذها بغير حق.

واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد، وأقره المنذري والذهبي. انظر: «المستدرك» (25/2)، و«المنتقى من الترغيب» حديث (1022)، وذكره في «صحيح الجامع الصغير».

(101) متفق عليه.

(102) رواه مسلم.

ولا ينفع آخذ المال بغير حق: أن يتصدق به، لأن صدقته غير مقبولة عند الله، فقد تصدق بما لا يملك، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لا يقبل الله صدقة من غلول**»(103).

إن الصدقة المقبولة هي التي تخرج من مال طيب، كما قال صصص: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»(104).

وقد رووا عن الإمام الفقيه الورع سفيان الثوري ررر: أنه اعتبر الكبائر: ما تعلق بحقوق العباد، والصغائر: ما تعلق بحق الله ععع.

نقل ذلك عنه العلامة ابن القيم في «المدارج» قال: قال سفيان الثوري: الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد، والصغائر: ما كان بينك وبين الله، لأن الله كريم يعفو، واحتج بحديث يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صصص: «**ينادي منادٍ من قبل بطنان العرش يوم القيام: يا أمة محمد، إن الله ززز قد عفا عنكم جميعكم، المؤمنين والمؤمنات، فتواهبوا المظالم بينكم، وادخلوا الجنة برحمتي**»(105).

قلت: مراد سفيان: أن الذنوب التي بين العبد وبين الله أسهل أمرًا من مظالم العباد، فإنها تزول بالاستغفار، والعفو والشفاعة وغيرها، وأما مظالم العباد:

---

(103) رواه مسلم.

(104) رواه مسلم.

(105) حديث أنس ذكره الغزالي في «الإحياء» في فضيلة العفو والإحسان، وقال العراقي: أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقري في كتاب «التبصرة والتذكرة» وإسناده ضعيف.

فلا بد من استيفائها، وفي «المعجم» للطبراني: «**الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك بالله، ثم قرأ: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ}** [النساء: 48] **وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وهو مظالم العباد بعضهم بعضًا، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين الله**».

ومعلوم أن هذا الديوان مشتمل على الكبائر والصغائر، لكن مستحقه أكرم الأكرمين، وما يعفو عنه من حقه ويهبه أضعاف أضعاف ما يستوفيه، فأمره أسهل من الديوان الذي لا يترك منه شيئًا لعدله، وإيصال كل حق إلى صاحبه.

* * *

صغائر الذنوب وكبائرها

ذهب بعض العلماء إلى أن المعاصي كلها كبائر، وكأنهم استعظموا أن يكون المعصي هو الله الكبير المتعال، الخالق الرازق، ثم تكون معصيته صغيره، فرأوا أن كل ما عصى الله به فهو كبيرة.

فإذا كانت إساءة الولد إلى والده ولو بكلمة، تستعظم وتستهول، لعظم حق الوالد، فكيف بحق الرب الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى؟

وهذا شعور طيب، ولا شك، ولكنه لا ينفي الواقع.

وهو أن المعاصي والذنوب تتفاوت تفاوتًا بينًا في مفاسدها وآثارها في الحياة، وتتفاوت كذلك في تأثيرها على القلب وتدنيسه.

كما أن النصوص نفسها بينت بوضوح أن المعاصي كبائر وفواحش، ومنها دون ذلك كما قال تعالى في وصف مشهد من مشاهد الآخرة: **{وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا}** [الكهف: 49].

يقول تعالى: **{إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}** [النساء: 31].

وفي وصف الذين أحسنوا يقول تعالى: **{وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى 31 ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ}** [النجم: 31، 32].

وفي مدح المؤمنين الذين أدخر الله لهم في الآخرة ما هو خير وأبقى من متاع الحياة الدنيا، فقال: **{فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ**

خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ 36 وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ} [الشورى: 36، 37].

فلم تطلب هذه الآية ولا تلك اجتناب صغائر الذنوب، لأن الناس قلما يسلمون من مواقعتها في حياتهم اليومية، وإنما اكتفى منهم باجتناب كبائر الإثم والفواحش.

وفي «الصحيح» عن النبي صصص أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن، إذا اجتنب الكبائر**».

وانقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر: ثابت بنصوص القرآن والسنة الصحيحة واجماع الصحابة والتابعين، وبالاعتبار والمعقول أيضًا.

وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الاسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر، فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم، كإثم الوطء في الحرام، وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عصى بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

قال ابن القيم: والذي جاء في لفظ الشارع: تسمية ذلك «لممًا» و«محقرات» كما في الحديث: «**إياكم ومحقرات الذنوب**» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر، حكاه البغوي وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يلم بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب،

إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لممًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع ... أي لكن يقع منهم اللمم.

ثم اختلفوا في فصلين، أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو يحدها؟ فلنذكر شيئًا يتعلق بالفصلين.

معنى اللمم:

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرًا، قال البغوي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك»، قال السدى: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله ززز: «إلا اللمم؟» فقلت: «هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في «صحيح البخاري» من حديث طاووس عنه قال: «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صصص: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[106]، ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه: «**والعينان زناهما: النظر، والأذنان: زناهما الاستماع، واللسان: زناه**

---

(106) رواه البخاري (6243)، ومسلم (2657).

الكلام، واليد: زناها البطش، والرجل: زناها الخطا»(107).

وقال الكلبي: «اللمم» على وجهين، كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا في الدنيا، ولا عذابًا في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يلم به المسلم المرة بعد المرة، فيتوب منه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب، أي ما خطر عليه.

وقال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد، فهو مغفور، فإن أعاد النظر، فليس بلمم، وهو ذنب، وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صصص: **«إن تغفر اللهم تغفر جمًّا، وأي عبد لك لا ألما»**(108).

وذهب طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا، فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي، ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى: «أن يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين، كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة -

---

(107) هو في صحيح مسلم (2656).

(108) رواه الترمذي (3280)، والحاكم (492/2).

ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره - باللمم، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارًا عديدة، وهذا من فقه الصحابة رررت وغور علومهم، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارًا كثيرة، وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا، ويذكر عن علي ررر أنه: «دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت، فلما قطعت يده قال: اصدقني، كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال، فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم، فهو من جنسه ونظيره، فالقولان عن أبي هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين[109]، والله أعلم.

اختلاف السلف في معنى الكبيرة وعددها:

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفي «الصحيحين» من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صصص قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»**[110].

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صصص: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** ثلاثًا - قالوا: يا رسول الله، قال: **الإشراك بالله،**

---

(109) انظر: «المدارج» (1/315 - 318).

(110) أخرجه البخاري (6675)، ولم يخرجه مسلم كما في «تحفة الأشراف» (6/346) للمزي، ورواه أحمد (2/201)، والترمذي (3024)، والنسائي (7/89).

وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئًا - **فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»**(111).

وفي «الصحيح» من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي صصص (112): **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ}** [الفرقان: 68].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ررر عن النبي صصص قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(113).

وعن عبد الله بن عمرو رررب عن النبي صصص قال: «**من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه**، وقالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: **يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**»(114).

وفي حديث أبي هريرة ررر عن النبي صصص قال: «**إن من أكبر**

---

(111) أخرجه البخاري (5977)، ومسلم (87)، والترمذي (2302).

(112) رواه البخاري (4477)، ومسلم (142)، والترمذي (3182)، والنسائي (89/7)، وأحمد (434/1).

(113) رواه البخاري (6857)، ومسلم (89).

(114) رواه البخاري (5973)، ومسلم (90).

الكبائر: استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق»(115).

وهذه الأحاديث الصحاح: تدلنا على أن الكبائر ليست في درجة واحدة، بل هي متفاوتة، فمنها: ما سماه الرسول: «**أكبر الكبائر**».

وقال عبد الله بن مسعود ررر: «أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر: «أسبع هن؟ قال: هن إلى السبع مائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شيء عصى الله به فهو كبيرة، من عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة أو مكذبًا بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود ررر: «ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: **{إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ}** [النساء: 31] فهو كبيرة»، وقال علي بن أبي طلحة: «هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب».

وقال الضحاك: هي ما اوعد الله عليه حدًا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا، أو عظيمًا، نحو قوله في أكل أموال اليتامى: **{إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا}** [النساء: 2]، وفي قتل الأولاد: **{إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا}** [الإسراء: 31]، وفي الشرك: **{إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ}**

---

(115) رواه أبو داود (4877)، والبزار (3569) و(3570) بأسانيد يشد بعضها بعضًا، وله شاهد من حديث معيذ بن زيد عند أبي داود (4876)، وأحمد (190/1) وإسناده صحيح.

[لقمان: 13]، وفي الإفك: {سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ} [النور: 16]، وفي إيذاء النبـي: {إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا} [الأحزاب: 53].

وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة.

قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة، فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع، وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين.

ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنى وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك، فهو من الكبائر(116).

أقول: وهذا هو أقرب التعاريف إلى بيان حقيقة «الكبيرة» فنحن نعرفها بما رتبه الله عليها من إقامة حد أو عقوبة منصوص عليها، فهذا دليل خطرها وعظمها. وكذلك إذا أوعد عليها بوعيد شديد مثل دخول النار ولعنة الله وغضبه وعذابه العظيم أو الأليم أو نحو ذلك، ولكن يجب أن يثبت هذا الوعيد بالقرآن الكريم، أو بالأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا خلاف عليها، أما الأحاديث المثخنة بالجراح مثل أحاديث الغناء والآلات ولعب الشطرنج،

(116) «مدارج السالكين» ببعض تصرف.

ونحوها، مما يختلف العلماء في ثبوته أو في دلالته على مجرد التحريم، فكيف تثبت به الكبيرة، واصل التحريم مشكوك فيه؟!

* * *

حقائق حول الكبائر والصغائر

1- الصغيرة تجر إلى الكبيرة:

هناك جملة من الحقائق يجب أن نلم بها حول الكبائر والصغائر:

الحقيقة الأولى: إن الذنوب يفضي بعضها إلى بعض، والأدنى منها يفضي إلى الأعلى، فالصغيرة تجر إلى الكبيرة، والكبيرة قد تجر إلى الكفر، والعياذ بالله، ولهذا قالوا: أول ذنب إبليس معصية وآخره كفر، وأول ذنب قابيل - ابن آدم الشرير - شهوة، وآخره شقوة.

ولهذا كان تحذير الإسلام من كل ما يؤدي إلى المعصية أو يساعد عليها، وخصوصًا الكبيرة منها، ومن أجل هذا حرم الخمر قليلها وكثيرها، ولو قطرة منها، والكثير هو المقصود بالتحريم، ولكن القليل يدفع عادة إلى الكثير، والألف تجر إلى الباء كما يقولون.

وكذلك لعن في الخمر عشرة، والمقصود هو منع الشرب والسكر، ولكنه لعن كل من ساهم فيها وسهل تناولها، حتى يقطع جذورها، ويسد الطريق إليها، ولعل بعض هؤلاء يكون أعظم من الشارب إثمًا، مثل مروجها والمتاجر فيها، وخصوصًا مع المخدرات، وهي جزء من الخمر، فإن الخمر - كما قال عمر - ما خامر العقل، فصنع الخمر والمخدرات والاتجار بها أشد آلاف المرات من تعاطيها، ولهذا اتفق كثير من فقهاء عصرنا على ضرورة عقاب تجار هذه السموم بالقتل «الإعدام»، قصاصًا لهم، فهم قتلة سفاحون، ولكن يقتلون شعوبًا، ويدمرون مجتمعات بأسرها، وهم محاربون لله ورسوله، وساعون في الأرض فسادًا.

ولعن رسول الله صصص - مع آكل الربا - مؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء، أي في أصل الإثم، وإن كان الأكل هو المقصود أصلًا، وهؤلاء له تبع لمعاونتهم على الإثم والعدوان.

وحرم الإسلام الزنى، فإنه كان فاحشة، وساء سبيلا، ولكنه حرم كل ما يقرب إلى الزنى ويعين عليه مثل: الخلوة والنظرة بشهوة، والقبلة ونحوها، وكذلك التبرج والمغريات بالفاحشة من الأغاني والصور والمشاهد المثيرة.

وهكذا نجد الصغائر تجر إلى الكبائر، فإذا زلت قدم المكلف، وسقط في حفرة المعصية - ولو كانت صغيرة - ولم يتدارك نفسه بسرعة بالتوبة تنهضه من عثرته، وتقيمه من كبوته، فسرعان ما تدفع هذه المعصية إلى ثانية، والثانية إلى ثالثة، وهلم جرا، ويستجرئ عليه الشيطان بمجرد انهزامه أمامه مرة، وتضعف نفسه الأمارة بالسوء عن المقاومة، حتى ينتهي إلى الاستسلام لعوامل السوء، ونوازع الشر، ويستمرئ هذا الطريق، ولا يستطيع فطامًا عنه، وهذا هو الخطر، الذي يستعاذ بالله منه.

2- اجتناب الكبائر يكفر الصغائر:

والحقيقة الثانية من أحكام الكبيرة: أن اجتنابها يكفر الصغائر، كما قال تعالى: **{إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}** [النساء: 31].

قال ابن كثير: أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها، كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة.

وقال الإمام الغزالي: اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة، إذا اجتنبها مع

القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها، فكف نفسه عن الوقاع، فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع: أشد تأثيرًا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنينا «عاجزًا جنسيًا» أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز، أو كان قادرًا، ولكن امتنع لخوف أمر آخر، فهذا لا يصلح للتكفير أصلًا، وكل من لا يشتهي الخمر أصلًا، ولو أبيح له لما شربه، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر، نعم من يشتهي الخمر، وسماع الأوتار، فيمسك نفسه بالمجاهد عن الخمر، ويطلقها في السماع، لمجاهدته النفس بالكف، ربما نمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع ...

وينقل العلامة رشيد رضا كلام الغزالي هذا، وكلامه في تكفير السيئات بفعل الحسنات المضادة لها، وإن كل سيئة تمحي بحسنة من جنسها، إلى آخر ما نقلناه من قبل. ثم يقول: لله دره: ما أدق فهمه لحكمة القرآن، وتطبيقه على فطرة الإنسان، ومن وقف على ما ثبت عند علماء الإنسان بعد الغزالي ... فإنه يعجب بما أوتي هذا الرجل من قوة الذهن، ونفوذ أشعة الفهم[117].

وتقرير هذه الحقيقة يفيدنا فائدتين كبيرتين ومهمتين في المجال التربوي:

الأولى: غرس الأمل والرجاء في سعة رحمة الله تعالى، وجميل فضله، وواسع كرمه، فيكفي أن يجتنب المسلم كبائر الإثم، ليكفر عنه سيئاته الأخرى، وجراحاته التي لا يكاد يسلم منها الناس.

عن أنس ررر خادم النبي صصص قال: لم أر مثل الذي بلغنا عن ربنا

---

(117) «تفسير المنار» (ج 4/ 55، 56)، طبعة ثانية.

تعالى، لم نخرج له عن كل أهل ومال ... ثم سكت، ثم قال: والله لقد كلفنا ربنا أهون من ذلك، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر فما لنا ولها؟ ثم تلا: {**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ...**} [النساء: 31]» الآية[118].

والثانية: غرس روح السماحة والعفو في التعامل بين الناس، وترك التغليظ عليهم، ومحاسبتهم على كل صغيرة وكبيرة، فهذا منافٍ لمعاملة الله تعالى مع عباده، فلا ينبغي لنا أن نشدد على الناس في صغائر الذنوب إذا اجتنبوا كبارها، وقد عفا الله تعالى عنها، وقد عرفنا من نصوص القرآن والسنة أن في دين الله متسعًا لكل من لم يصبح ارتكاب الكبائر خطًا ثابتًا في حياته.

ومن روائع الدروس التربوية الإسلامية ما جاء عن أمير المؤمنين عمر ررر في تعليم الناس كيف يتغاضون عن صغائر الذنوب، وتوافه العيوب، إذا وقعت ممن يؤدي الفرائض، ويجتنب الكبائر، فليس هناك إنسان معصوم، وكل بني آدم خطاء، ولم يخلق الله البشر ملائكة مطهرين.

روى ابن جرير بسنده عن ابن عون عن الحسن البصري: أن ناسًا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله ززز، أمر أن يعمل بها، لا يعمل بها! فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك ... فقدم وقدموا معه - فلقى عمر ررر، فقال: متى قدمت؟

قال: منذ كذا وكذا ...

قال: أبإذن قدمت؟

---

(118) الأثر رواه الطبري في «تفسيره» بإسناد صحيح برقم (9231).

قال الحسن: فلا أدري كيف رد عليه.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناسًا لقوني بمصر، فقالوا: إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها، فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك.

قال: فاجمعهم لي.

قال: فجمعتهم له، قال ابن عون: في بهو، فأخذ أدناهم رجلًا.

فقال: أنشدك بالله، وبحق الإسلام عليك: أقرأت القرآن كله؟

قال: نعم.

قال: فهل أحصيته في نفسك؟ «يعني: هل استقصيت العمل به في تصحيح نيتك وتطهير قلبك، ومحاسبتك نفسك؟».

فقال: اللهم لا. «ولو قال: نعم، لخصمه» أي: لأفحمه وألزمه الحجة.

قال: فهل أحصيته ببصرك؟ فهل أحصيته في لفظك «أي: كلامك»؟ فهل أحصيته في أثرك «أي: في خطواتك ومشيك»؟

ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، «يعني: وهو يسألهم: هل استقصيتم العمل بكتاب الله كله في أنفسكم وجوارحكم، وأقوالكم وأعمالكم، وحركاتكم وسكاناتكم؟ وهم بالطبع يجيبون: اللهم لا» فقال: ثكلت عمرًا أمه! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ «أي: بالصورة التي تفهمونها أنتم، ولم تقيموها في أنفسكم باعترافكم».

قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ... وتلا: **{إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا}** [النساء: 31].

ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمتم؟

قالوا: لا.

قال: لو علموا لوعظتُ بكم! «أي: لجعلتكم عظة ونكالًا لغيركم».

ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير، وقال عقبه: إسناد صحيح ومتن حسن. اهـ.

وهذا في الواقع درس في التربية ودرس في السياسة أيضًا، وفقه السياسة في الإسلام لا ينفصل عن فقه التربية.

وبهذا الفقه العمري الواعي لكتاب الله، حسم أمير المؤمنين ررر هذه القضية في بدايتها، وسد بابًا للتشدد والتنطع لو كان تساهل فيه، لربما هبت منه رياح فتنة لا يعلم إلا الله مدى عواقبها»[119]. اهـ.

وهذا التشدد الذي بدت بذوره في عهد عمر، وأطفأ نار فتنته في مهدها بفقهه وحزمه، قد ظهر بعد ذلك في عهد عثمان بقوة أكبر، وتفاقم واستفحل، حتى أشعل الفتنة الكبرى، التي لم يزل يعاني المسلمون إلى اليوم من آثارها.

3- الكبيرة قد تصغر بأسباب وملابسات:

وهنا حقيقة ثالثة ينبغي التفطن لها، نبه عليها العلامة ابن القيم، وهي أن «الكبيرة» قد يقترن بها من الحياء والخوف، والاستعظام لها - ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة - من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف والاستهانة بها - ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها.

---

(119) «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» (ص 184 - 186).

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضًا فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: انظر إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجر بلحية نبي مثله، وهو هارون، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد صصص ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى، غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى، وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع، كما قيل:

وإذا الحبيب اتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع!

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكر به إذا وقع في الشدائد، قال تعالى عن ذي النون: ﴿**فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ 143 لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ**﴾ [الصافات: 143، 144]، وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿**ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ [يونس: 90]، قال له

جبريل: {ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ} [يونس: 91].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك، لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له، ويسامحه ما لا يسامح به المشرك، وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئًا ألبتة غفر ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل بذنوبه، على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علمًا بما قدمناه.

ونزيد ها هنا إيضاحًا لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

اعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور - قوة، وضعفًا - لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علمًا وعملًا، ومعرفة وحالًا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد: أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنبًا، إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده، الذي لم يشرك بالله شيئًا، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه، بكسبه، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن - من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء.

نعم من قالها بلسانه، غافلًا عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابتها، حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته - وهو في تلك الحال - على أن جعل ينوء

بصدره، وهو يعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها.

وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب، وقد اشتد به العطش يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها وهو ملآن، حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا الخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا[120].

4- الصغيرة قد تكبر بأسباب وملابسات:

كما أن الكبيرة قد تصغر بما يصاحبها من مشاعر الحياء والخوف وعدم الرضا عن النفس ونحوها، فإن الصغيرة قد تصحبها مشاعر ومظاهر وملابسات معينة تحيلها إلى كبيرة، كما أن هذه الملابسات نفسها إذا صحبت الكبيرة تجعل إثمها أكبر وخطرها أعظم. وهذه هي الحقيقة الرابعة في هذا المقام.

---

(120) انظر: «المدارج» (328/1) وما بعدها.

وهذا ما عرض له الإمام الغزالي في فصل رائع من كتاب التوبة من «الإحياء» بين فيه الأمور والأسباب التي تعظم بها الذنوب الصغائر، وتزداد الكبائر بها كبرًا وعظمًا، ويحسن أن ننقله هنا بتصرف قليل.

قال حجح: اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

الإصرار والمواظبة:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها. ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله صصص: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[121]، والأشياء تستبان بأضدادها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظيم تأثيره في إظلام القلب، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

---

(121) متفق عليه من حديث عائشة.

استصغار المعصية:

ومنها: أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الإلف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر «**المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره**»[122].

وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر، قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا! وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة، وكذلك قال بعض الصحابة رررت للتابعين: إنكم لتعلمون أعمالًا هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صصص من الموبقات! إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا

---

(122) أخرجه البخاري، من رواية الحارث بن سويد قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي صصص، والآخر عن نفسه، فذكر هذا وحديث: «**لله أفرح بتوبة العبد**» ولم يبين المرفوع من الموقوف. ولكن فرح الله تعالى بتوبة العبد جاء مرفوعًا في الصحاح.

السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

الفرح بالمعصية:

ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد، كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به، لشدة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته، وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها، فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه، وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر ناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

التهاون بستر الله عليه:

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتًا ليزداد بالإمهال إثمًا، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: {**وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ**

فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ} [المجادلة: 8].

إظهار المعصية والتبجح بها:

ومنها: إن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن إنضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه، والحمل عليه، وتهيئة الأسباب له: صارت جناية رابعة، وتفاحش الأمر، وفي الخبر «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه**»(123)، وهذا لأن من صفات الله ونعمه: أنه يظهر الجميل، ويستر القبيح، ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة.

وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه، فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: **{ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ}** [التوبة: 67].

وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه.

معصية العالم والقدوة:

ومنها: أن يكون المذنب عالمًا يقتدي به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه، كلبس العالم الإبريسم «الحرير» وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال

---

(123) حديث: «**كل الناس معافى إلا المجاهرين ...**» الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين، وتردده عليهم، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأغراض، وتعديه باللسان في المناظرة، وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم، ويبقى شره مستطيرًا في العالم آمادًا متطاولة، فطوبى لمن إذا ماتت ذنوبه معه، وفي الخبر: «**من سن سنة سيئة وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئًا**»(124)، قال تعالى: **{وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ}** [يس: 12] والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل.

وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع: يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس، فيذهبون بها في الآفاق.

وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة، تغرق ويغرق أهلها! وفي الإسرائيليات: أن عالمًا كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهرًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار؟!

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير، ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق، فيتبع عليه، ويقتدي به العلماء والعوام، فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين، وجمع

(124) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب.

الحطام من الحرام، ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طورى الزيادة والنقصان، تتضاعف آثارها: إما بالربح وإما بالخسران[125].

أسباب وملابسات أخرى لتضخيم الذنوب:

وما ذكره الإمام الغزالي كله مسلم ولا ريب، ولكن ينبغي أن نضيف إليه أن ثمت أسبابًا وملابسات أخرى تؤدي إلى تضخيم الذنوب والمعاصي وخصوصًا الكبيرة، فإنها بهذه الأسباب والملابسات التي تقترن بها تتضخم وتتفاقم، وتتعاظم عقوبتها عند الله ززز.

فإذا أخذنا كبيرة كالزنى الذي قال الله فيه: **{وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا}** [الإسراء: 32].

جدنا أن هذه الكبيرة الفاحشة قد تزداد فحشًا بإضافات معينة تلتبس بها.

منها: ما يتصل بالزنى، فالزنى المحصن غير الزاني العزب، ولهذا كان حد العزب مائة جلدة كما في كتاب الله، وحد المحصن الرجم، كما ثبت في السنة، والزاني الشيخ المسن غير الزاني إذا كان شابًا، فالشباب شعلة من الجنون، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل - فقير - مستكبر**»[126]، وهؤلاء الأصناف الثلاثة يرتكبون معاصيهم دون حاجة شديدة إليها.

ومنها: ما يتصل بالمزني بها، كأن تكون امرأة متزوجة، فهو يفسدها على

---

(125) انظر: «إحياء علوم الدين» (32/4، 33) بتصرف قليل.

(126) رواه مسلم عن أبي هريرة.

زوجها، ويهتك حرمته، ويؤذيه أبلغ الأذى، وقد تحمل منه، فيفسد عليه نسبه، وينسب إليه ولد ليس من صلبه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا من خبَّب** (أي أفسد) **امرأة على زوجها**»[127] ولا سيما إذا كانت المرأة مستقيمة الحال، وهو الذي أغراها بالانحراف، وربما ظل يطاردها حتى ضعفت واستجابت.

ويزداد إثم الزنى بالمرأة المتزوجة إذا كانت امرأة جاره، التي يفترض فيه أن يكون حارسًا لها، لا لصًا يسرق عفتها، ويخون جاره فيها، وقد قال عنترة وهو جاهلي:

وأغض طرفي إن بدت لي ... حتى يواري جارتي مأواها!

ولكن هذا يغير عليها ويفتك بها، وقد نفى الرسول الكريم الإيمان عمن لا يأمن جاره بوائقه.

روى الشيخان من حديث ابن مسعود أن النبي صصص سئل: أي الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله ندًا، وهو خلقك**». قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[128].

فذكر من هذه الذنوب أعظمها، وهي في نفسها عظيمة، فالشرك كله ظلم

---

(127) رواه عن أبي هريرة أبو داود (1275)، والنسائي في «الكبرى»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (196/2)، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي ورواه عن ابن عباس أبو يعلى، ورواته ثقات كما قال المنذري. «المنتقى» (1167)، والهيثمي (5/ 265).

(128) متفق عليه عن ابن مسعود.

عظيم، وأعظمه أن تتخذ لله ندًا، وهو خالقك، والقتل في حد ذاته من أكبر الكبائر، ولكن أعظمه أن تقتل ولدك، الذي يفترض أن تجوع ليشبع، وتسهر لينام، وتفديه بنفسك، وتقتله بدافع خسيس وهو خوف أن يزاحمك في طعامك! والزنى كبيرة في نفسه، ولكن أن تزني بحليلة جارك الذي يفترض أن تكون أمينًا على حرماته، تحفظه إذا غاب، وتعينه إذا حضر، فهذه أكبر وأعظم.

وعن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله صصص لأصحابه: «**ما تقولون في الزنى؟**» قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله صصص: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة: أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**» قال: «**ما تقولون في السرقة**»؟ قالوا: السرقة حرام، حرمها الله ورسوله، فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات: أيسر عليه من أن يسرق من جاره**»(129).

فإذا كان هذا الجار قريبًا للزاني، كأن يكون ابن عم أو ابن خال أو ابن خالة، أو كان أخًا له أو عمًا أو خالًا، كان الإثم أعظم، لأنه ضم إلى إفساد الزوجة قطع الرحم، ولا يدخل الجنة قاطع رحم، ولأنه جار له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق الجوار، وحق القرابة، لهذا كان إيذاؤه أعظم خطرًا.

ومثل ذلك المرأة «الغيبة» التي غاب زوجها في طاعة الله، في حج أو عمرة، أو طلب علم، أو دعوة إلى الله، أو في الجهاد في سبيل الله، وهو أعظمها، فالزاني بهذه المرأة أعظم إثمًا، وأكبر جرمًا، من الزاني بزوجة رجل عادي، لأن في هذا الزنى: خيانة لهذا الزوج الذي غاب في طاعة الله،

---

(129) رواه أحمد في «المسند» (6/ 8) ورواته ثقات، والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» كما قال المنذري في «الترغيب» «المنتقى» (1521)، وكذا الهيثمي (8/ 168).

أو في مصحة الدين والأمة، فهذا يكافئه بانتهاك حرمته، والاعتداء على عرضه.

وفي الحديث: «**مثل الذي يجلس على فراش المغيبة، مثل الذي ينهشه أسود من أساود يوم القيامة**»(130).

والمغيبة: من غاب عنها زوجها. والأسود: الحية.

وفي «الصحيح» عن بريدة أن النبي صصص قال: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم! ما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى**»، ثم التفت إلينا رسول الله صصص فقال: «**فما ظنكم؟!** أي **فما ظنكم بمن حكم في حسنات خصمه في يوم يكون الناس أحوج ما يكونون فيه إلى الحسنات، ولا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده؟**»، وفي رواية النسائي لهذا الحديث زاد: «**أترون يدع له من حسناته شيئًا؟!**»(131) ...

ومثل ذلك أو شر منه: من يزني بإحدى محارمه كأخته أو عمته أو خالته، فإثمه هنا أكبر، لأن المفروض أن يحمي عرض هؤلاء، ويقاتل عنهن إذا اعتدى عليهن، لا أن يفترسهن، ويدخل في ذلك: المحارم بالمصاهرة مثل: حماته وامرأة أبيه، وامرأة ابنه.

---

(130) رواه الطبراني عن عبد الله بن عمرو رفعه ورواته ثقات كما قال المنذري انظر: «المنتقى» (1426)، والهيثمي (258/6).

(131) رواه مسلم في الإمارة (1897)، وأبو داود (2496)، والنسائي في الجهاد: بابًا من خان غازيًا في أهله (50/6، 51).

وقد تتعاظم الكبيرة خاصة والسيئة عامة: بحكم المكان الذي وقعت، فيه، كأن تقع في البلد الحرام، فإن السيئات تضاعف فيه عقوبتها، كما أن الحسنات تضاعف مثوبتها. وهذا هو العدل، فإن الله كما ضاعف لنساء النبي أجرهن إذا قنتن لله وعملن صالحًا، ضاعف عذابهن إذا أتين بفاحشة مبينة.

وكما تضاعف الكبيرة أو السيئة بسبب المكان، تتضاعف بسبب الزمان، فمن يزني في الشهر الحرام يكون إثمه أشد، لقوله تعالى عن الأشهر الحرم: **{ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ}** [التوبة: 36] وظلم النفس حرام في كل الشهور، ولكنه في الأشهر الحرام أعظم إثمًا.

ومثل ذلك في شهر رمضان، الذي فرض الله صيام أيامه، وسن الرسول قيام لياليه، ونهى فيه عن اللغو والرفث، فالمسلم يدع فيه شهوته وزوجته من أجل الله، وهذا يزني بامرأة أجنبية من أجل شيطانه وهواه.

ولهذا حين جيء إلى عمر ررر بسكران أقام عليه حد السكر، وزاده عشرين جلدة، لانتهاكه حرمة شهر رمضان، وقال له: أسكر وصبياننا صيام؟!

ومثل ذلك: أيام عشر ذي الحجة التي تضاعف فيها مثوبة الحسنات، وخصوصًا يوم عرفة! وكذلك أوقات الصلوات وسماع الأذان، وأوقات إجابة الدعاء ونحوها.

وقد يتضاعف إثم السيئة أو الكبيرة بسبب الفعل نفسه، كما ذكر الغزالي، مثل المواظبة والتكرار له، كما في قوله: «**أن تزاني حليلة جارك**» فعبارة «تزاني» لا بقصد بمرة أو مرتين، بل تقتضي المعاودة والتكرار.

ومثل ذلك: المعالنة والمجاهرة، كما في الحديث الصحيح: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**».

ولهذا جعل الشارع عقوبة الزنى على المجاهرة لا على مجرد الفعل، بدليل أنه اشترط لإثبات جريمة الزنى، وإقامة الحد على الزنى: أربعة شهود عدول يرون العملية الجنسية بوضوح، كالميل في المكحلة أو القلم في الدواة، كما يقول الفقهاء، وهذا لا يمكن أن يحدث في العادة إلا إذا كان الزانيان فاجرين لا يباليان أن يراهما الناس متلبسين.

وفي حديث ابن عمر عن ابن ماجه والبزار والبيهقي: «**يا معشر المهاجرين: خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...**» الحديث.

فالاستعلان بالفاحشة - وهي تشمل الزنى وعمل قوم لوط - ينزل بها عقوبة القدر بظهور الطاعون والأمراض التي لم يعرفها السابقون، وهو ما صدقه الواقع أبلغ التصديق، ولا سيما بعد فشو مرض «الإيدز» الذي أعجز الأطباء علاجه إلى اليوم، ويسمونه «الطاعون الأبيض»!

وقد جاء في حديث ابن مسعود: «**ما ظهر في قوم الزنى والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله**»(132) فعذاب الله إنما حل بهم بعد الظهور والاستعلان لفاحشة الزنى، وموبقة الربا، وهو ذنب آخر فوق ذنب الكل منهما.

---

(132) رواه أحمد في «المسند» وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وأبو يعلى وإسناده جيد كما قال الهيثمي (18/4).

وشر من الاستعلان: ارتكاب فاحشة الزنى اغتصابًا وعدوانًا وعنوة، تحت تهديد القوة والسلاح كما يفعله بعض الحكام الطغاة، أو الأقوياء الظلمة، أو الأغنياء الفجرة، في بنات الأسر المستضعفة، التي لا تملك حولًا ولا قوة، وكما يفعله بعض الأشرار الذن يخطفون النساء من الطريق، ويركبونهن سياراتهم بالحديد والنار، ويرتكبون معهن الفاحشة، ثم يلقونهن بعد ذلك عظمًا، بعد أن أكلوهن لحمًا، ولهذا ذهب كثير من علماء العصر إلى أن عقوبة هؤلاء يجب أن تكون القتل، ردعًا وزجرًا، وهو ما نرجحه.

وما نقوله في الزنى نقوله في غيره، مثل القتل فالقتل كله من الموبقات، ولكن قتل المؤمن الصالح أشد وأعظم من قتل المسلم العاصي أو المخلط، وقتل المسلم الداعية إلى الله أشد من قتل المسلم العادي، كما قال تعالى: **{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** [آل عمران: 21].

وقتل الأطفال البرآء أشد من قتل الكبار، كما ذكر القرآن على لسان العبد الصالح لموسى: **{أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا}** [الكهف: 74].

وقتل الأولاد من الأطفال أشد نكرًا لأنه قتل وقطع رحم، فإذا قتلهم من أجل الإملاق أو خشية الإملاق كانت الجريمة أعظم، كما قال تعالى: **{إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا}** [الإسراء: 31].

فإذا كان القتل بطريق «الوأد» كما كانوا يفعلون بالبنات في الجاهلية كان الجرم أبشع وأشنع **{وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ 8 بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ}** [التكوير: 8، 9].

وانظر إلى ذنب مثل الكذب، فلا شك أن الكذب كله حرام، ولكن إثمه

يتفاوت ويتعاظم بسبب وآخر، فكذب الملوك والحكام مما يشتد بغض الله له، وقد جاء في «الصحيح» أن أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: «ملك كذاب».

ومن ذلك: الكذب في «الشهادة» لما يترتب عليها من تضليل العدالة، وتضييع الحقوق، وزرع الشر في المجتمع، ولذا عدها الحديث المتفق عليه من أكبر الكبائر.

ومن ذلك: الكذب في اليمين. لما فيها من استهانة باسم الله تعالى والقسم به، وما ينشأ عن ذلك من ضياع الأموال والدماء والأعراض، ولهذا سميت اليمين الفاجرة، واليمين الغموس، لأنها تغمس صاحبها في الإثم في الدنيا، وفي النار في الآخرة، ولهذا عدت في الكبائر.

ومن ذلك: الكذب في الرؤيا: أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا، كما صح في الحديث لما فيها من كذب على الناس، في أمر قد يؤثر في أفكار الناس وميولهم.

وأكبر من ذلك: الكذب على رسول الله باختراع أحاديث لم يقلها، وقد تواتر عنه صصص: **«إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**.

وأكبر وأكبر: من كذب على الله تعالى بادعاء النبوة، كما قال تعالى: **{وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ}** [الأنعام: 93].

وهكذا نجد الذنوب كلها قابلة لأن تتعاظم وتتعاظم ويتضاعف إثمها

وعقوبتها عند الله، بأسباب وملابسات شتى تنضم إليها، فيكبر ضرارها، ويتفاقم أثرها.

* * *

مكفرات الذنوب

من فضل الله تعالى علينا، ورحمته بنا: أنه تعالى علم ضعفنا، كما قال سبحانه: {وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا} [النساء: 28].

وقد علم الله سبحانه أن هذا الضعف الذي جبل عليه الإنسان، سيدفع بالإنسان إلى المعصية، كما وقع لأبيه الأول آدم سسس، ومن هنا أتاح لنا ززز فرصة بعد فرصة للتطهر من أوساخ هذه المعاصي والذنوب، فجعل لنا مغاسل أو «حمامات» عدة متنوعة، نغتسل فيها من الخطايا التي تغلب إرادتنا، وينهزم فيها باعث الدين أمام باعث الهوى، وينتصر فيها الشيطان على الإنسان.

وقد عبر ابن القيم ححح عن هذه الكفرات بـ «الأنهار» يغتسل فيها المذنب من خطاياه نهرًا بعد نهر، حتى يتطهر تمامًا من كل درن.

وفي عصرنا أصبحت الأنهار تلوث من يغتسل فيها أكثر مما تطهره، نظرًا لكثرة ما يلقى فيها من الفضلات والنفايات والقاذورات، حتى إن الجهات الصحية والبيئية لتحذر من مياه هذه الأنهار، ولهذا آثرت أن استخدم لفظًا أكثر تعبيرًا عن المقصود في زمننا، وهو لفظ «الحمامات» التي يدخلها الناس ليتنظفوا ويتطهروا.

وحاجة الإنسان إلى التطهر المعنوي من الذنوب: أشد من حاجته إلى التطهر الحسي من الأوساخ.

وبعض هذه الذنوب والخطايا: لا يكاد يسلم منها أحد، ومن سلم منها اليوم

وقع في شراكها في الغد، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، فكل بني آدم خطاء.

هذه الحمامات الروحية المتاحة لكل إنسان: بعضها يومي، كالصلوات الخمس، وبعضها أسبوعي كصلاة الجمعة، وبعضها شهري، كصيام الأيام البيض من كل شهر، وبعضها سنوي كصيام رمضان، وبعضها عمري، كفريضة الحج، الذي يجب في العمر مرة واحدة، وبعضها مرهون بظروفه مثل الهجرة والجهاد، وبعضها مفتوح ومتاح أبدًا، مثل التوبة والاستغفار، وذكر الله ونوافل العبادات.

وسنتحدث عن هذه «المكفرات» أو «الحمامات» في الصحائف التالية، حتى يحاول كل من دنسته الذنوب أن يغسل نفسه منها، ليكون من التوابين ومن المتطهرين الذين يحبهم الله تتت.

1- حمام التوبة:

أول هذه الحمامات هو: التوبة، فإن من أعظم ثمراتها: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، فهي تجب ما قبلها من الذنوب وتهدمه، كما أن الإسلام يجب ما قبله من الكفر والجاهلية ويهدمه.

يقول تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ}** [التحريم: 8] فجعل تكفير السيئات أولى ثمرات التوبة.

وقد مر بنا حديث **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[133].

---

(133) رواه ابن ماجه (4250)، والطبراني (10281)، وأبو نعيم (210/4) عن ابن

ونؤكد هنا ما ذكرناه من قبل، وهو الاستمرار في التوبة، وتكرارها كلما تكرر الذنب، ولا ييأس أبدًا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

روى الحاكم عن عقبة بن عامر أن رجلًا أتى النبي صصصص، فقال: يا رسول الله، أحدنا يذنب! فقال: «**يكتب عليه**»، قال: ثم يستغفر! قال: «**يغفر له ويتاب عليه**»، قال: فيعود فيذنب! قال: «**يكتب عليه**»، قال: ثم يستغفر منه ويتوب! قال: «**يغفر له ويتاب عليه، ولا يمل الله حتى تملوا**»(134).

روى ابن أبي الدنيا عن علي ررر قال: خياركم كل مفتن ثواب «والمفتن: الذي يفتن ويبتلى بالذنب حينًا بعد حين، والتواب: الذي يتوب من الذنب مرة بعد مرة» قيل لعلي: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب. قيل: حتى متى؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور! «أي المغلوب اليائس».

وقال الإمام الغزالي: فإن تبت ثم نقضت التوبة، وعدت إلى الذنب ثانيًا، فعد إلى التوبة مبادرًا، وقل لنفسك: لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة، وكذلك ثالثًا ورابعًا، وكما اتخذت الذنب والعود إليه حرفة، فاتخذ التوبة العود إليها حرفة، فلا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب، ولا تيأس، ولا يمنعك الشيطان من التوبة سبب ذلك، فإنه دلالة الخير(135).

مسعود، وحسنه الحافظ ابن حجر بشواهده كما في «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص152).

(134) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي(59/1) مع أن في سنده عبد الله بن صالح كاتب الليث وفي حفظه شيء.

(135) «منهاج العابدين» للغزالي (ص80) طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت.

2- حمام الاستغفار:

والحمام الثاني هو: الاستغفار، وهو مكمل للتوبة، بل هو التوبة نفسها إذا صدق، ولذا يقترنان، ويفرد أحدهما فيعبر به عن الآخر معه، كما ذكرنا قبل. وقد جاء عن أنس قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 135] بكى «اللعين»(136).

وقال ابن مسعود: هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها(137). وذكر العلامة ابن رجب في «العلوم والحكم» قال: قال أبو هريرة: إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم ألف مرة، وذلك على قدر ديتي(138). عبر بالدية عما يطلب منه مقابل الذنوب.

وقالت عائشة: طوبي لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا(139).

وقال أبو المنهال: ما جاور عبد في قبره من جار أحب إليه من استغفار كثير.

وبالجملة فدواء الذنوب: الاستغفار، وعن أبي ذر: «إن لكل داء دواء، وإن

---

(136) رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير كما في «الدر المنثور» للسيوطي (2/ 326).

(137) نفسه - ونسبه لابن المنذر.

(138) «الحلية» (383/1).

(139) «الحلية» (359/10)، ورواه ابن ماجه (3818)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (455) من حديث عبد الله بن بسر مرفوعًا، وإسناده صحيح كما قال البوصيري في «الزوائد».

دواء الذنوب: الاستغفار»[140].

وقال قتادة: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم: فالاستغفار.

وقال بعضهم: إنما معول المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته ذنوبه، أكثر لها من الاستغفار.

قال رياح القيسي: لي نيف وأربعون ذنبًا، قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة[141].

وحاسب بعضهم نفسه من وقت بلوغه، فإذا زلاته لا تجاوز ستًا وثلاثين زلة، فاستغفر الله لكل زلة مائة ألف مرة، وصلى لكل زلة ألف ركعة، قال: ومع ذلك، فإني غير آمن سطوة ربي أن يأخذني بها، وأنا على خطر من قبول التوبة.

وقيل للحسن: ألا يستحيي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه، ثم يعود، ثم يستغفر، ثم يعود، فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار، وروي عنه أنه قال: ما أرى هذا إلا من أخلاق المؤمنين، يعني: أن المؤمن كلما أذنب تاب.

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: من أحسن منكم، فليحمد الله، ومن أساء، فليستغفر الله، فإنه لا بد لأقوام من أن يعملوا أعمالًا وظفها الله في رقابهم، وكتبها عليهم، وفي رواية أخرى عنه أنه قال: أيها الناس من ألم

---

(140) رواه الحاكم (242/4) عن أبي ذر موقوفًا، وصححه ووافقه الذهبي.
(141) «الحلية» (194/6).

بذنب، فليستغفر الله وليتب، فإن عاد، فليستغفر الله وليتب، فإن عاد، فليستغفر الله وليتب، فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك في الإصرار عليها.

ومعنى هذا: أن العبد لا بد أن يفعل ما قدر عليه من الذنوب كما قال النبي صصص: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنى، فهو مدرك ذلك لا محالة**»[142]. ولكن الله جعل للعبد مخرجًا مما وقع فيه من الذنوب، ومحاه بالتوبة والاستغفار، فإن فعل، فقد تخلص من شر الذنب، وإن أصر على الذنب، هلك.

ويروى عن لقمان سسس أنه قال لابنه: يا بني عود لسانك: اللهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا.

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «حسن الظن» - بسند ضعيف[143] - من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**بينما رجل مستلق إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم، فقال: إني لأعلم أن لك ربًا خالقًا، اللهم اغفر لي، فغفر له**».

وعن مورق قال: كان رجل يعمل السيئات، فخرج إلى البرية، فجمع ترابًا، فاضطجع عليه مستلقيًا، فقال: رب اغفر لي ذنوبي، فقال: إن هذا

(142) قطعة من حديث رواه البخاري (6243) و(6612)، و مسلم (2675)، وأبو داود (2152) من حديث أبي هريرة.

(143) لضعف عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي أحد رواته، ورقم الحديث (107).

ليعرف أن له ربًا يغفر ويعذب، فغفر له.

وروي أن أبو نعيم في «الحلية»(144) عن مغيث بن سمي، قال: بينما رجل خبيث، فتذكر يومًا، فقال: اللهم غفرانك، اللهم غفرانك، اللهم غفرانك! ثم مات، فغفر له.

قال العلامة ابن رجب: ومن زاد اهتمامه بذنوبه، فربما تعلق بأذيال من قلت ذنوبه، فالتمس منه الاستغفار، وكان عمر يطلب من الصبيان الاستغفار، ويقول: إنكم لم تذنبوا! وكان أبو هريرة يقول لغلمان الكتاب: قولوا: اللهم اغفر لأبي هريرة، فيدعون فيؤمن على دعائهم.

قال بكر المزني: لو كان رجل يطوف على الأبواب كما يطوف المسكين يقول: استغفروا لي، لكان له أن يفعل.

ومن كثرت ذنوبه وسيئاته حتى فاتت العد والإحصاء، فليستغفر الله مما علم الله، فإن الله قد علم كل شيء وأحصاه، كما قال تعالى: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ}** [المجادلة: 6]، وفي حديث شداد بن أوس، عن النبي صصص: «**أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب**»(145).

وفي هذا يقول بعضهم:

أستغفر الله مما يعلم الله   إن الشقي لمن لا يرحم الله

---

(144) «الحلية» (68/6).

(145) رواه أحمد (125/1)، والترمذي (3407)، وصححه ابن حبان (1974)، والحاكم (508/1)، ووافقه الذهبي.

مــا أحلــم الله عمــن لا يراقبــه كــل مســيء ولكــن يحلــم الله

فاسـتغفر الله ممـا كـان مـن زلـل طـوبي لمـن كـف عمـا يكـره

3- حمام الحسنات والطاعات:

والحمام الثالث الذي يغتسل فيه المذنب من ذنوبه هو: حمام الحسنات والطاعات، كما قال تعالى: **{إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ}** [هود: 114].

وكما قال صصص في وصيته لأبي ذر: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**».

وقد بينا ذلك بإجمال في حديثنا عن «مقومات التوبة» وذكرنا رأي الإمام الغزالي في محو السيئات بما يضادها من الحسنات من جنسها، وذكرنا أمثلة عدة لذلك، وهنا نذكر تفصيلات أكثر للحسنات والطاعات التي يبدد نورها ظلمات المعاصي، كما تشرق الشمس، فتزيل دجى الليل.

التوحيد والخلوص من الشرك:

على رأس قائمة الحسنات: التوحيد، فهو حسنة الحسنات، وأساس الطاعات، ولا يكفي فيه «توحيد الخالقية» أو «الربوبية» فقد كان مشركو العرب يقرون به، ولكن لا بد من «توحيد الإلهية» بمعنى: أن لا يعبد إلى الله، وهو التوحيد الذي أنزل الله به كتبه، وبعث به رسله **{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ}** [الأنبياء: 25].

فإقامة التوحيد، والخلوص من الشرك: أعظم أسباب مغفرة الذنوب، وأما الشرك فهو المانع الأول من المغفرة، كما قال تعالى: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ**

---

(146) انظر: «جامع العلوم والحكم» (415/1، 416).

بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ} [النساء: 8].

وقد روى مسلم عن أبي ذر عن النبي صصص قال: «**يقول الله تعالى: من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا ... ومن لقيني بقراب الأرض** «أي بملئها أو ما يقاربه» **خطيئة، لا يشرك بي شيئًا، لقيته بمثلها مغفرة»**(147).

وروى الترمذي عن أنس في الحديث القدسي أيضًا: «**يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة»**(148).

المهم أن يتحقق الشرط وهو: ألا يشرك بالله شيئًا، لا حجرًا، ولا شجرًا، ولا شمسًا ولا قمرًا، ولا جنًا ولا بشرًا، فيتحرر من الشرك كله، أكبره وأصغره، جليه وخفيه، ومن عبادة كل ما سوى الله: من عبادة الأشياء، وعبادة الأشخاص، وعبادة الذات: **{فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا}** [الكهف: 110].

وبهذا يحقق معنى «لا إله إلا الله» في نفسه وفي حياته، فيعبد الله وحده، ويجتنب الطاغوت.

يقول الحافظ ابن رجب: فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه: أخرجت منه كل ما سوى الله محبة، وتعظيمًا وإجلالًا، ومهابة وخشية، ورجاء وتوكلًا، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها، ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الأكسير الأعظم، فلو وضع ذرة منها على جبال الذنوب

---

(147) رواه مسلم برقم (2687).

(148) رواه الترمذي (3540) وحسنه.

والخطايا، لقلبها حسنات.

وفي «المسند» عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت أن النبي صصص قال لأصحابه: «**ارفعوا أيديكم، وقولوا: لا إله إلا الله**» فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله صصص يده، ثم قال: «**الحمد لله، اللهم بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني الجنة عليها، وإنك لا تخلف الميعاد**»، ثم قال: «**أبشروا، فإن الله قد غفر لكم**»(149).

وليس المراد: إن يقولها المرء من طرف لسانه، فالمنافقون يقولونها، وإنما المطلوب أن يتواطأ القلب واللسان، حتى تؤتى أكلها، وتحقق أثرها.

إحسان الوضوء والصلاة:

ومن هذه الحسنات والطاعات: إحسان الوضوء وإتمام الصلاة: العبادة اليومية التي تجعل المسلم على موعد مع ربه كل يوم خمس مرات.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث أبي بكر الصديق ررر، عن النبي صصص قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: {وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ}** [آل عمران: 135]»(150).

---

(149) رواه أحمد في «المسند» (124/4)، والبزار والطبراني، وحسنه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»، وقال الهيثمي: رجاله ثقات «جامع العلوم والحكم» (4172).

(150) رواه أحمد (2/1، 10)، وابن أبي شيبة (387/2)، وأبو داود (1520)، والترمذي (3006)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (414) و(417)، وابن ماجه (1395)، وأبو بكر المروزي في «مسند أبي بكر» (9) و(10)، وصححه ابن حبان (632).

وفي «الصحيحين»[151] عن عثمان أنه توضأ، ثم قال: رأيت رسول الله صصص توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وفي «مسند الإمام أحمد»[152] عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صصص يقول: «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام فصلى ركعتين أو أربعًا يحسن فيهما الركوع والخشوع، ثم استغفر الله غفر له**».

وفي «الصحيحين»[153] عن أنس قال: كنت عند النبي صصص، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًا، فأقمه علي، قال: ولم يسأله عنه، فحضرت الصلاة فصلى مع النبي صصص، فلما قضى النبي صصص الصلاة قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًا، فأقم في كتاب الله، قال: «**أليس قد صليت معنا؟**» قال: نعم، قال: «**فإن الله قد غفر لك ذنبك - أو قال: حدك**» وخرجه مسلم[154] بمعناه من حديث أبي أمامة.

وفي «الصحيحين»[155] عن أبي هريرة عن النبي صصص قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من**

---

(151) البخاري (159) و(164)، ومسلم (227).

(152) (443/6، 450)، ورواه الطبراني في «كتاب الدعاء» (1848) وهو حديث حسن.

(153) البخاري (6823)، ومسلم (2764) وقوله: «**أصبت حدًا**» قال النووي: هذا الحد معناه معصية من المعاصي الموجبة للتعزير، وهي هنا من الصغائر، لأنها كفرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له لم تسقط بالصلاة، ويرى ابن القيم أن الذي أسقط هذه الكبيرة هو: التوبة، وقوله: «فأقمه علي» يدل على أنه من العقوبات التي تقام على الجاني.

(154) رقم (2765).

(155) البخاري (528)، ومسلم (667).

درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»**.

وفي «صحيح مسلم»[156] عن عثمان، عن النبي صصص قال: «**من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»**.

وفيه[157] عن أبي هريرة عن النبي صصص قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»**.

ومن الصلوات التي لها أهمية خاصة: صلاة الجمعة. ففي «صحيح مسلم»[158] عن أبي هريرة أن النبي صصص قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا أجتنبت الكبائر»**.

وفي «مسند أحمد» عن سلمان عن النبي صصص: «**لا يتطهر الرجل** - يعني يوم الجمعة - **فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة فينصت، حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتلة»**[159].

---

(156) برقم (245).

(157) برقم (251).

(158) برقم (233).

(159) رواه أحمد في «مسنده» (439/5) ورجاله ثقات.

والمراد بالمقتلة: الكبائر التي توبق الإنسان، وتعرضه لعذاب الله.

ومن هذه الصلوات المكفرة: قيام الليل، وفي الحديث: «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد**»(160).

الصيام والصدقة والحج:

وللعبادات الأخرى أثرها في التطهير والتكفير: من الصيام والصدقة والحج والعمرة.

وفي «الصحيحين»(161) عن أبي هريرة، عن النبي صصص قال: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وهكذا جعل الثواب الموعود هنا لمن فعل ذلك «**إيمانًا واحتسابًا**» أي تصديقًا بوعده سبحانه، وابتغاء للمثوبة عنده.

وفيهما(162) عن أبي هريرة عن النبي صصص قال: «**من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**».

فهذه التوبة ليست لكل حاج، ولكن لم حج فلم يرفث ولم يفسق.

---

(160) رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن بلال، والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي أمامة والطبراني عن سلمان، وابن السني عن جابر، كما في «صحيح الجامع الصغير» (4079).

(161) البخاري (1901) و(2008) و(2014)، ومسلم (759).

(162) البخاري (1819) و(1820)، ومسلم (1350).

وفي «صحيح مسلم»[163] عن عمرو بن العاص، عن النبي صصص قال: «**إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وإن الحج يهدم ما كان قبله**».

وفي «الصحيحين»: «**العمرة إلى العمرة: كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»[164]، وفي النسائي: «**تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد**»[165].

وفي «صحيح مسلم»[166] من حديث أبي قتادة، عن النبي صصص قال في صوم عاشوراء: «**أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله**»، وقال في صوم يوم عرفة: «**أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده**».

وروى الإمام أحمد[167] من حديث عقبة بن عامر، عن النبي صصص قال: «**مثل الذي يعمل السيئات، ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى، فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض**».

---

(163) رقم (121).

(164) رواه مالك وأحمد والشيخان وأصحاب السنن عن أبي هريرة، كما في «صحيح الجامع الصغير» (4136).

(165) رواه النسائي عن ابن عباس، ورواه أحمد وابن ماجه عن عمر بلفظ: «**ينفيان عن الفقر والذنوب**» كما رواه أحمد والترمذي والنسائي عن ابن مسعود. «صحيح الجامع الصغير وزيادته (2899-2901).

(166) رقم (1162).

(167) (145/4)، وسنده حسن، فإن راويه عن ابن لهيعة عبد الله بن المبارك.

وروى الترمذي من حديث معاذ بن جبل الطويل، وقال: حسن صحيح: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**»[(168)].

ذكر الله:

ومما يكفر الخطايا: ذكر الله ززز، وخصوصًا إذا تواطأ عليه القلب واللسان: سواء كان ذكر ثناء أم ذكر دعاء قال تعالى: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا 41 وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا**} [الأحزاب: 41، 42].

ومن هذا الذكر: التسبيح والتهليل قول: «**لا إله إلا الله**» والتحميد «**الحمد لله**» والتكبير، والحوقلة «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي صصص قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده، في يومه مائة مرة، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[(169)].

وفيهما عنه، عن النبي صصص قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أفضل من ذلك**»[(170)].

---

(168) وقد ثبت أيضًا من حديث جابر، رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان والحاكم. انظر: «المنتقى» حديث (448).

(169) البخاري (6405)، ومسلم (2692).

(170) البخاري (3293) و(6403)، ومسلم (2191).

وخرج الإمام أحمد[171] بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله صصص قال: «**إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر: تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقمها**».

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا يطول الكتاب بذكرها.

وسئل الحسن عن رجل لا يتحاشى من معصية إلا أن لسانه لا يفتر من ذكر الله، فقال: إن ذلك لعون حسن.

وسئل الإمام أحمد عن رجل اكتسب مالًا من شبهة: صلاته وتسبيحه يحط عنه شيئًا من ذلك؟ فقال: إن صلى وسبح يريد به ذلك، فأرجو، قال الله تعالى: **{خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ}** [التوبة: 102].

وقال مالك بن دينار: البكاء على الخطيئة يحط الخطايا، كما تحط الريح الورق اليابس.

وقال عطاء: من جلس مجلسًا من مجالس الذكر، كفر به عشرة مجالس من مجالس الباطل.

ولما سئل عطاء: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام، وكيف تصلي؟ وكيف تصوم؟ وكيف تنكح؟ وكيف تطلق؟ تبيع وتشتري «يعني: مجلس الذكر هو: مجلس العلم».

البر والصلة:

ومن مكفرات الذنوب: بر الوالدين، وصلة الرحم، وبخاصة بر الوالدين

---

(171) في «مسنده» (152/3).

في حالة الكبر، وفي الحديث أن جبريل سسس دعا على من أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما، فلم يغفر له، وأمن عليه النبي صصص[172].

وروى الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عمر أن رجلًا أتي النبي صصص، فقال يا رسول الله، إني أصبت ذنبًا عظيمًا، فهل لي من توبة؟ قال: «**هل لك من أم؟**» قال: لا، قال: «**فهل لك من خالة؟**» قال: نعم، قال: «**فبرها**»[173].

وروي عن عمر أن رجلًا قال له: قتلت نفسًا! قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: فأبوك؟ قال: نعم، قال: فبره وأحسن إليه، ثم قال عمر: لو كانت أمه حية فبرها، وأحسن إليها، رجوت أن لا تطعمه النار أبدًا، وعن ابن عباس معناه أيضًا[174].

وكذلك المرأة التي عملت بالسحر بدومة الجندل، وقدمت المدينة تسأل عن توبتها، فوجدت النبي صصص قد توفى، فقال لها أصحابه: لو كان أبواك حيين، أو أحدهما، كانا يكفيانك، رواه الحاكم[175]، وقال: فيه إجماع الصحابة، حدثان وفاة الرسول - على أن بر الوالدين يكفيانها.

---

(172) روي عن أكثر من صحابي، وصحح المنذري في «الترغيب والترهيب» بعض أسانيده، وكذلك الهيثمي.

(173) رواه أحمد (2/14-13) ، والترمذي (1905)، وابن حبان (4356)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين (4/155).

(174) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (4)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(175) (1/155، 156)، وصححه ووافقه الذهبي، داود، ابن كثير في «تفسيره» (1/204) من طريق ابن أبي حاتم وجود إسناده.

الإحسان إلى الخلق:

ومن الحسنات والطاعات المكفرة للذنوب: فعل الخيرات، والإحسان إلى خلق الله، والرحمة بهم جميعًا من إنسان وحيوان.

فالراحمون يرحمهم الرحمن، ومن رحم من في الأرض رحمه من في السماء. وقد ذكرنا في تأثير العبادات أن الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفي الماء النار، وقد قال الرسول الكريم: «**كل معروف صدقة**» متفق عليه.

وقد صح عن أبي موسى أنه لما حضرته الوفاة قال: يا بني اذكروا صاحب الرغيف: كان رجل يتعبد في صومعة - أُراه - سبعين سنة، فشبه الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال ثم كُشف عن الرجل غطاؤه، فخرج تائبًا. ثم ذكر أنه بات بين مساكين، فتصدق عليهم برغيف رغيف، فأعطوه رغيفًا، ففقده صاحبه الذي كان يعطاه، فلما علم بذلك أعطاه الرغيف، وأصبح ميتًا! فوزنت السبعون سنة بالسبع ليال، فرجحت الليالي، ووزن الرغيف بالسبع الليال، فرجح الرغيف(176)!

وهذا وإن كان موقوفًا على أبي موسى، فله حكم الحديث المرفوع، لأنه مما لا مجال للرأي فيه.

ولا يقتصر تكفير السيئات على الإحسان إلى الناس والعقلاء، بل الإحسان إلى البهائم والحيوانات والرفق بها مما تغفر به الذنوب.

ومن أبرز النماذج الدالة على ذلك: هذا النموذج الحي الذي قصه علينا النبي صصص من قصص السابقين، فيما رواه عنه أبو هريرة، قال

---

(176) رواه أبو نعيم في «الحلية» (263/1).

صصص: «**غفر لامرأة مومسة «بغي» مرت بكلب على رأس ركي «بئر» يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك**» قيل: إن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل ذات كبد رطبة أجر وكنى برطوبة الكبد عن الحياة، أي في الإحسان إلى كل كائن حي أجر.

فرغم الماضي الخبيث لهذه المرأة التي كانت تحترف البغاء والتكسب بفرجها: فغفر الله لها بهذه الفعلة العظيمة التي قامت بها، والتي دلت على أن حرفتها السيئة لم تطفئ كل ما في قلبها من النور، ولم تقتلع كل ما فيه من جذور الخير، وقد بدا ذلك فيما قامت به من جهد لسقي الكلب وإرواء عطشه، وإنقاذ حياته.

وفي مقابل هذه الرحمة التي أوجبت لها المغفرة، نجد امرأة أخرى انتهت بها «قسوة القلب» إلى عذاب جهنم، وبئس المصير، وذلك فيما رواه ابن عمر وأبو هريرة قالا: قال رسول الله صصص: «**عذبت امرأة في هرة أمسكتها حتى ماتت من الجوع، فلم تكن تطعمها، ولا ترسلها فتأكل من خشاش الأرض**» أي من هوامها وحشراتها، متفق عليه.

هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر؟

قال ابن رجب: وقد اختلف الناس: هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر؟ فمنهم من قال: لا تكفر سوى الصغائر، وقد روي هذا عن عطاء وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفر الصغائر، وقال سلمان الفارسي في الوضوء: إنه يكفر الجراحات الصغار، والمشي إلى

المساجد يكفر أكبر من ذلك، والصلاة تكفر أكبر من ذلك، أخرجه محمد بن نصر المروزي[177].

وأما الكبائر، فلا بد لها من التوبة، لأن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالمًا، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدي إلا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفرة بالوضوء والصلاة، وأداء بقية أركان الإسلام، لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع.

وأيضًا فلو كفرت الكبائر بفعل الفرائض، لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار إذا أتى بالفرائض، وهذا يشبه قول المرجئة وهو باطل، هذا ما ذكره ابن عبد البر في كتابه «التمهيد» وحكى إجماع المسلمين على ذلك، واستدل عليه بأحاديث:

منها قول النبي صصص: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**» وهو مخرج في «الصحيح»[178] من حديث أبي هريرة، وهذا يدل على أن الكبائر لا تكفرها هذه الفرائض.

وفي «صحيح مسلم»[179] عن عثمان، عن النبي صصص قال: «**ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله**».

---

(177) في كتاب الصلاة رقم (99).

(178) رواه مسلم (233).

(179) برقم (228).

وفي «مسند الإمام أحمد»[180] عن سلمان، عن النبي صصص قال: «**لا يتطهر الرجل** - يعني يوم الجمعة - **فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتله**».

وخرج النسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي صصص قال: «**والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل له: ادخل بسلام**»[181].

وقال ابن مسعود: الصلوات الخمس كفارات لما بينهم ما اجتنبت الكبائر[182].

وقال سلمان: حافظوا على هذه الصلوات الخمس، فإنهن كفارات لهذه الجراح ما لم تصب المقتلة[183].

قال ابن عمر لرجل: أتخاف النار أن تدخلها، وتحب الجنة أن تدخلها؟ قال: نعم، قال: بر أمك، فوالله لئن ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الموجبات.

---

(180) «المسند» (439/5)، ورجاله ثقات.

(181) رواه «النسائي» (8/5)، والحاكم (200/1) و (240/2)، وصححه ابن حبان (1748).

(182) انظر «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (224/1).

(183) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (148) و (4737)، ومن طريقه الطبراني (6051).

وقال قتادة: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر.

وذهب قوم من أهل الحديث وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر، ومنهم ابن حزم الظاهري، وإياه عني ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» بالرد عليه وقال: قد كنت أرغب بنفسي عن الكلام في هذا الباب، لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغتر به جاهل، فينهمك في الموبقات، اتكالًا على أنها تكفرها الصلوات، دون الندم والاستغفار والتوبة، والله نسأله العصمة والتوفيق.

قلت: «والقائل ابن رجب» وقد وقع مثل هذا في كلام طائفة من أهل الحديث في الوضوء ونحوه، ووقع مثله في كلام ابن المنذر في قيام ليلة القدر، قال: يُرجى لمن قامها أن يغفر له جميع ذنوبه، صغيرها وكبيرها.

والصحيح قول الجمهور: إن الكبائر لا تكفر بدون التوبة، لأن التوبة فرض على العباد، وقد قال الله ﷻ: **{وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الحجرات: 11].

وقال ابن عون: لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك، فإنك لا تدري كفرت عنك أم لا، إن عملك مغيب عنك كله.

قال: والأظهر - والله أعلم - في هذه المسألة - أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال - أنه إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض، وتقع الكبائر مكفرة بذلك، كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر، فهذا باطل، وإن أريد أنه قد يوازن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال، فتمحي الكبيرة بما يقابلها من العمل، ويسقط العمل، فلا يبقى له ثواب، فهذا قد يقع.

وقد تقدم عن ابن عمر أنه لما أعتق مملوكه الذي ضربه، قال: ليس لي فيه من الأجر شيء، حيث كان كفارة لذنبه، ولم يكن ذنبه من الكبائر، فكيف بما كان من الأعمال مكفرًا للكبائر؟

وسبق أيضًا قول من قال من السلف: إن السيئة تمحى، ويسقط نظيرها حسنة من الحسنات التي هي ثواب العمل، فإذا كان هذا في الصغائر، فكيف بالكبائر؟ فإن بعض الكبائر قد يحبط بعض الأعمال المنافية لها، كما يبطل المن والأذى الصدقة.

4- حمام المصائب والهموم:

ومن أعظم المكفرات للذنوب والخطايا: ما يبتلي الله به المسلم والمسلمة من مصائب الدنيا، من المرض والفقر، ومن فقد الأحباب، والأموال، والغربة عن الأهل والوطن، والاعتقال والسجن، ومن الهم والحزن، ومن كل ما يتألم الإنسان منه بدنيًا أو نفسيًا من ابتلاءات الحياة، وذلك أن هذه المصائب تشعر الإنسان بعجزه وضعفه وفقره، وقدرة ربه وقوته وغناه المطلق، وتتيح له فرصة محاسبة نفسه، ومراجعة رصيده، والرجوع إلى مولاه، فيدعو ربه منيبًا إليه ويقول: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، وفي هذا قال الله تعالى: **{ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ}** [الروم: 41].

ومن ثم كان تكفير البلايا للخطايا متفقًا مع سنن الله تعالى، لما لها من تأثير في نفس المبتلى، وإنزاله من دعوى الفرعونية إلى حقيقة العبودية.

وفي هذا روى أبو هريرة وأبو سعيد عن النبي صصص قال: «**ما يصيب**

المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[184].

وعن عبد الله بن مسعود قال: دخلت على النبي صصص، وهو يوعك «أي يتألم من شدة المرض» فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله! إنك توعك وعكًا شديدًا! فقال: **«أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»** قال: فقلت: ذلك لأن لك أجرين! فقال: **«أجل»** ثم قال: **«ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله تعالى به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»**[185].

ومن أجل هذا روى ابن عباس قال: كان النبي صصص إذا دخل على مريض يعوده قال: **«لا بأس، طهور إن شاء الله»**[186]! يعني إن هذا المرض طهارة وكفارة له.

وعن جابر قال: دخل رسول الله صصص على أم السائب، فقال: **«ما لك تزفزفين؟»** «أي ترتعدين» قال: الحمى، لا بارك الله فيها! فقال: **«لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد»**[187].

وعلى قدر شدة البلاء واستمراره، يكون التطهير والتكفير للخطايا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صصص: **«لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة: في نفسه وماله وولده، حتى يلقى الله تعالى، وما عليه من**

---

(184) متفق عليه.

(185) متفق عليه.

(186) رواه البخاري «صحيح الجامع الصغير» (4718).

(187) رواه مسلم: المصدر السابق (7321).

خطيئة» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وروى مالك نحوه.

وعن سعد قال: سئل النبي صصص: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان صلبًا في دينه اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، هون عليه، فما زال كذلك أي ينزل به البلاء حتى يمشي على الأرض ما له ذنب**». رواه الترمذي وابن ماجه والدرامي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وهذا التطهير والتكفير والثواب من الله تعالى، إنما هو لمن استقبل البلاء بصبر جميل، واحتسب ما أصابه عند الله تعالى، ولم يقابله بالسخط والجزع، فيضيع بحماقته ما له عند ربه.

عن أنس أن النبي صصص قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله ززز إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**» رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه.

وعنه قال: سمعت رسول الله صصص يقول: «**قال الله ععع: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، ثم صبر، عوضته منهما الجنة**» يريد: عينيه. رواه البخاري، فانظر قوله: «**ثم صبر**»، ليدل على وجوب الصبر عند البلاء.

وعن شداد ابن أوس والصنابحي، أنهما دخلا على رجل مريض يعودانه، فقالا له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنقمة! فقال شداد: أبشر بكفارات السيئات، وحط الخطايا، فإني سمعت رسول الله صصص يقول: «**إن الله ززز يقول: إذا أنا ابتليت عبدًا من عبادي مؤمنًا، فحمدني على ما**

ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك، كيوم ولدته أمه من الخطايا»[188]، فانظر قوله سبحانه: «**فحمدني على ما ابتليته**» فهو قيد لا بد منه ليستحق ما وعد به: أن يخرج من خطاياه، كيوم ولدته أمه، أي يولد ميلادًا جديدًا، وذلك بأن يفلسف بلواه، وينظر إلى جانب النعمة فيها، كما قال عمر: ما أصبت ببلاء، إلا رأيت لله عليه فيه أربع نعم: أنه لم يكن في ديني، أنه لم يكن أكبر منه، وإني لم أحرم الرضا به، وإني أرجو مثوبة الله عليه!

ومن هنا روى جابر مرفوعًا: «**يود أهل العافية يوم القيامة، حين يعطي أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض**». رواه الترمذي وقال غريب «وله شاهد من حديث ابن عباس يرتقي به إلى درجة الحسن».

ولهذا لم يكونوا يرحبون بالإنسان يعيش طول عمره معافى لا يبتلى بشيء، فإن معنى هذا أن كل عقابه على سيئاته مؤجل له في الآخرة.

فعن أنس قال: قال رسول الله صصص: «**إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر، أمسك عنه بذنبه، حتى يوافيه به يوم القيامة**». رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وعن يحيى بن سعيد قال: إن رجلًا جاءه الموت في زمن رسول الله صصص، فقال رجل: هنيئًا له، مات ولم يبتل بمرض! فقال رسول الله صصص: «**ويحك! وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض، فكفر عنه من**

---

(188) رواه أحمد.

سيئاته!». رواه مالك مرسلًا وهو مرسل صحيح الإسناد[189].

5- حمام الحدود والعقوبات اشرعية:

ومن الحمامات المطهرة والمكفرة للذنوب والخطايا: إقامة الحدود والعقوبات الشرعية على من اقترف الجرائم الموجبة لها.

كما إذا زنى وأقيم عليه حد الزنى، أو سرق وأقيم عليه حد السرقة، أو قذف وأقيم عليه حد القذف، أو شرب وأقيم عليه حد الشرب، وهكذا، فإن الله تعالى أكرم من أن يعاقبه مرتين: مرة في الدنيا ومرة في الآخرة، كما ورد لك عن علي ررر مرفوعًا: «**من أصاب حدًا فعجل عقوبته في الدنيا، فالله أعدل من أن يثني على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصاب حدًا فستره الله عليه، عفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه**»[190].

وأوضح وأصح ما يستدل به على أن الحدود والعقوبات الشرعية كفارة لمن أقيمت عليه: حديث عبادة بن الصامت، قال: كنا عند رسول الله صصص فقال: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ... فمن وفي منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب به** - أي في الدنيا - **فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**». خرجاه في «الصحيحين»، وفي رواية لمسلم: «**من أتى منكم حدًا فأقيم عليه فهو**

(189) أحاديث هذه الفقرة كلها «حمام المصائب والهموم» أخذناها من «مشكاة المصابيح» للخطيب التبريزي بتحقيق الشيخ الألباني. باب عيادة المريض وثواب المرض من كتاب الجنائز.

(190) رواه أحمد (99/1، 159)، والترمذي (2626) وقال: حسن غريب، والحاكم (445/2، 262/4) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

كفارته»[191].

وهذا يدل على أن الحدود كفارات، قال الشافعي: «لم أسمع في هذا الباب أن الحد يكون كافرة لأهله شيئًا أحسن من حديث عبادة بن الصامت».

وقوله: «**فعوقب به**» يعم العقوبات الشرعية، وهي الحدود المقدرة أو غير المقدة، كالتعزيرات، ويشمل العقوبات القدرية: كالمصائب، والأسقام والآلام، كما ذكرنا من قبل.

وأما حديث: «**لا أدري: الحدود كفارة لأهلها أم لا؟**»[192] فمحمول على أنه قال ذلك قبل أن يعلمه الله تعالى، فإن الله تعالى يعلمه ما لم يكن يعلم.

فهذه كلها مكفرات للذنوب والخطايا، فمن لم تطهره هذه الحمامات كلها، طهر في حياة البرزخ، بأن يعذب في قبره، فإن لم يتطهر بذلك، فلا يطهره إلا النار، أعاذنا الله منها.

* * *

---

(191) رواه البخاري (18)، ومسلم (1709).

(192) رواه الحاكم عن أبي هريرة (36/1، 14/2 أو 450) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، كما صححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» على شرطهما أيضًا. انظر: «الفتح» (66/1).

ثمرات التوبة

كسب المغفرة والجنة.

تجديد الإيمان.

تبديل السيئات حسنات.

الانتصار على العدو الدائم.

الانتصار على النفس الأمارة بالسوء.

انكسار القلب لله.

محبة الله تعالى.

فرح الله بالتائب.

* * *

ثمرات التوبة

وللتوبة النصوح إذا تحققت أركانها، واستوفت شروطها: ثمار دانية القطوف، يجدها كل تائب في نفسه وفي حياته الدنيا، وجزاء الآخرة خير وأبقى، وهي ثمرات أخروية ودنيوية، روحية ومادية، أخلاقية وعملية، فردية واجتماعية.

1- تكفير السيئات ودخول الجنات:

وأولى هذه الثمرات: كسب المغفرة ودخول الجنة، التي أعد الله فيها لعباده الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وصدق الله العظيم إذ يقول: **{فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ}** [السجدة: 17].

لقد أمرنا الله تعالى في كتابه بالمسارعة إلى مغفرة من ربنا، وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، ولكنه بين لنا في جلاء: إن المتقين ليسوا ملائكة أطهارًا، ولا أنبياء معصومين، ولكنهم بشر من خلق الله، يصيبون ويخطئون، ويطيعون ويعصون، ويستقيمون وقد ينحرفون، بيد أن مزيتهم على غيرهم أنهم لا يتمادون في الخطايا، ولا يذهبون في المعاصي حيث لا يعودون، بل سرعان ما يعودون إلى باب ربهم، واقفين على عتباته، مبتغين لمرضاته، طالبين لعفون، سائلين لمغفرته، راجين لرحمته، يقول تعالى **{وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ 133 ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ 134 وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ**

أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ} [آل عمران: 133 - 135].

فوصفهم الله تعالى ببذل الندى، واحتمال الأذى، حين وصفهم بالإنفاق في حالتي اليسر والعسر، وكف النفس عن الغضب، بل يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس، ثم بين سبحانه أنهم إذا ضعفوا يومًا فوقعوا في كبيرة مثل فعل الفاحشة، أو في صغيرة، وهو ما عبرت عن الآية بظلم النفس، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟

وقال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ}** [التحريم: 8].

رتبت الآية الكريمة على التوبة النصوح أمرين: تكفير السيئات، ودخول الجنات.

وقد بين الغزالي ررر: **أن للتوبة ثمرتين:**

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

الثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيبًا لله.

وللتكفير أيضًا درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب، والتدارك بالحسنات - وإن خلا عن حل عقدة الإصرار - من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلًا، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها، بل عرف أهل

المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها: أن قول الله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ**﴾ [الزلزلة: 7] صدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر، لكانت الثانية مثلها، ولكن لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل، فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصي فلا تتقيها، كالمرأة الخرقاء التي تدع الغزل اتكالًا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، وتقول: أي غنى يحصل بخيط؟ وما وقع ذلك في الثياب؟ لا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطًا خيطًا، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة، فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلًا، بل أقول: الاستغفار باللسان أيضًا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصانًا بالإضافة إلى عمل القلب(193).

2- تجديد الإيمان:

ومن الثمار اليانعة للتوبة: أنها تعمل على تجديد إيمان التائب وترميمه بعد ما نالت منه الخطايا ما نالت، فإن الذنوب والمعاصي التي تقع من المسلم تخدش الإيمان وتجرحه جرحًا يصغر أو يكبر، بقدر حجمها من الصغر والكبر، وبقدر كمها من القلة والكثرة، وبقدر كيفها من التأثير في النفس، فالمعصية التي يفرح بها صاحبها، ويستعيد ذكراها بتلذذ، غير التي يحزن

---

(193) انظر: «الإحياء» (48/4).

لوقوعها، ويشعر بالأسى كلما تذكرها، والمعصية التي يجاهر بها مرتكبها ويتبجحن غير التي يستخفي بها، ويخل منها، ويسأل الله أني سترها عليه ولا يفضحه في الدنيا ولا الآخرة.

والمعصية التي تقع فلتة من صاحبها كأنها بيضة الديك كما يقال، غير التي تتكرر منه، ويصر عليها مواظبًا فيعلق القلب بها.

وعلى كل حال، يظل هناك للمعصية تأثير سلبي على إيمان المكلف، قد ينتهي به إلى الكفر والعياذ بالله.

وفي الحديث الصحيح: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(194).

ويقول صصص: «**إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأسه كالظلة، فإذا أقلع، رجع إليه**»(195).

ويقول: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! من لا يأمن جاره بواتقه**»(196).

«**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(197).

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن**

---

(194) متفق عليه عن أبي هريرة. «صحيح الجامع الصغير» (7707).
(195) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة. المصدر السابق (586).
(196) رواه أحمد والبخاري عن أبي شريح. المصدر السابق (7102).
(197) متفق عليه عن أنس. نفسه (7583).

بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[198]. ومفهومه أن من لم يفعل هذه الخصال قد انتفى عنه الإيمان.

ما المراد بنفي الإيمان في هذه الأحاديث؟ لا نريد أن ندخل في خلاف الفرق حول هذه النصوص وما شابهها.

ولكن المتفق عليه: أنها تنفي الإيمان الصادق والكامل، وتغشي نوره بظلامها، وصفاءه بسوادها، فلا يصبح الإيمان بعد المعصية بقوته ونقائه وكماله وتأثيره كما كان قبل المعصية.

ولهذا كانت التوبة الصادقة النصوح تجديدًا للإيمان: تقويه بعد ضعف، وتوقظه بعد رقود، وتثبته بعد زعزعة بما تضيف إليه من أشواق وبواعث ومشاعر حية وجديدة، تحفز إلى الخير، وتزجر عن الشر.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يعطف الإيمان على التوبة، ويقرنه بها، لأنه مكمل لها، بل مصحح لوجودها، كما في قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا 68 يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا 69 إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ ...}** [الفرقان: 68 - 70].

وقال تعالى: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ}** [طه: 82].

ولتجديد الإيمان بالله في نفس التائب دلائل وآيات يعرفها صاحبها

---

(198) متفق عليه عن أبي شريح وأبي هريرة. «صحيح الجامع» (6501).

ويعيشها.

منها: أن يعرف بره سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه «البَرُّ» وهذا البر من سيده كان مع كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن كل ما سوى الله، ولا يشتغل إلا بذكره وشكره وحسن عبادته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بضعفه وعجزه، وغلبة هواه، وشيطانه عليه، ونحو ذلك، فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغاله بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهد بذلك، فعبودية التوبة بعد الذنب لون، وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلًا محمودًا، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيوجب لك ذلك أيضًا سكرًا له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدًا بمقتضاها، وذلك

أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن تكتمل للتائب مراتب الذل والخضوع لربه جل شأنه، والانكسار بين يديه، والافتقار إليه. فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية، ولو قدرت لقالت كقول فرعون، ولكنه قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر، وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية، **وهو أربع مراتب:**

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السموات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه، وهو وحده الغني عنهم، وكل أهل السموات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية، وهو ذل الاختيار، وهذا خاص بأهل طاعته، وهو سر العبودية.

المرتبة الثالث: ذل المحبة، فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب، كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب، فليس في حكم الهوى أنف يشال ويعقد

وقال آخر:

مساكين أهل الحب، حتى عليها تراب الذل بين المقابر(199)

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية

---

(199) في هامش الأصل من «المدارج»

أذل لمن أهوى لأكسب عزة وكم عزة قد نالها المرء بالذل

إذا كان من تهوى عزيزًا ولم تكن ذليلًا له، فاقر السلام على الوصل

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع: كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم، إذ يذل له خوفًا وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقرًا وفاقة[200].

3- تبديل السيئات حسنات:

ومن ثمار التوبة: ما ذكره الله تعالى في كتابه من تبديل سيئات التائبين حسنات.

وهو قوله تعالى: {**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**} [الفرقان: 70]، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رررت: «ما رأيت النبي صصصص فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول {**إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحًا مُّبِينًا 1 لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**} [الفتح: 1، 2]».

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنى عفة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالًا صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي

(200) انظر: «مدارج السالكين» (206/1، 207).

عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في «جامعه»: عن أبي ذر قال: قال رسول الله صصص: «**إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها ههنا!**» قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله صصص ضحك حتى بدت نواجذه.

قال ابن القيم: فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب، والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته، وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص

من أثره تارة، وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلا بد إذًا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار، فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول.

يوضحه: أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلًا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها.

يوضحه: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه

وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: **{يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ}** ولم يقل مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة، وسكت النبي صصص عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله «**اخبئوا عنه كبارها**» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر، وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي صصص عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر

بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

الانتصار على العدو الدائم:

ومن ثمار التوبة: الانتصار على العدو الدائم للإنسان، وهو الشيطان، الذي أقسم أمام الله تعالى: ليضلن بني آدم، وليغوينهم أجمعين، وأكد ذلك القرآن في عدة سور بأساليب شتى، كلها تدل على إصرار هذا اللعين على إهلاك الإنسان كما هلك هو باستكباره وتمرده على ربه.

فبعد أن طرده الله من السماء، وأخرجه مذؤومًا مدحورًا، وكتب عليه اللعنة إلى يوم الدين: {**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ**} [الحجر: 39].

{**قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ 16 ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ**} [الأعراف: 16، 17]، {**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ 82 إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ**} [ص: 82، 83].

ولقد نفذ اللعين وعده، وبر في قسمه وهو كذوب، ولم يتوان ساعة في تزيين الشر، وتحسين الباطل، وإضلال الناس في الاعتقاد والفكر، وإغوائهم في العمل والسلوك، حتى سئل الحسن البصري ررر: هل ينام الشيطان؟ قال:

لو نام لاسترحنا منه بعض الوقت! ولكنه لا ينام ولا يأخذ إجازة، ومن هنا وجب التيقظ لعداوته، والتنبه لكايده، والتفطن لكل المداخل التي يدخل منها، والثغرات التي يستغل غفلة حراسها، ليتسلل إليها، ويقفز منها إلى داخل حصوننا ليهدمها من داخلها.

لهذا حذرنا الله تعالى منه أشد التحذير، وبصرنا أبلغ التبصير، فقال تعالى: **{إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ}** [فاطر: 6].

{وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ 168 إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ} [البقرة: 168، 169].

هذا العدو عدو دائم، لا يقبل صلحًا ولا هدنة، ولا يرضيه إلا هلاك بني آدم، الذي كان سبب عداوته لهم الحسد، وقد قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إزالتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد!

وقال معاوية: أستطيع أن أرضي كل الأعداء، إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي!

وكلما أوقع الشيطان اللعين، بني الإنسان في براثن الذنوب، قرت عينه، وغمرته الفرحة، بما أصاب من عدوه، وكلما استنارت بصائرهم، واستيقظت ضمائرهم، بعد المعصية، فتابوا إلى الله واستغفروه، أدركته الحسرة، وركبه الغم، لضياع جهده سدى، ولهذا يروى عن إبليس أنه قال: أهلكت بني آدم بالذنوب، فأهلكوني بالتوبة والاستغفار.

ويروى أيضًا أنه قال لربه: بعزتك لأظلن أغوي بني آدم ما دامت

أرواحهم في أجسادهم، فقال الله ززز: «**وبعزتي لأظلن أغفر لهم ما استغفروني**».

لقد انتصر الشيطان اللعين على الإنسان في أول الأمر حين أوقعه في المعصية، ثم انتصر عليه الإنسان حين رجع إلى الله بالتوبة.

5- الانتصار على النفس الأمارة بالسوء:

ومن ثمرات التوبة: انتصار التائب على شهوات نفسه، التي بين جنبيه، والتي تدفعه - بما ركب فيها من غرائز ودوافع فطرية - إلى مقارفة الشر، والمعصية، والتكاسل عن الخير والطاعة، وهي النفس التي سماها القرآن: أمارة بالسوء، حين قال على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف الصديق سسس: {**وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ**} [يوسف: 53].

وهذه الصيغة «أمارة» تدل على المبالغة والكثرة، فهي دائمة الأمر بالسوء، والإغراء به، والتحريض عليه، وكثيرًا ما يضعف الإنسان أمام إغرائاتها وتحريضاتها، وتسترخي إرادته ويستجيب لداعيها، حتى إن القرآن الكريم قص علينا قصة أول جريمة قتل وقعت في تاريخ البشرية، وفي فجر حياتها قبل أن يعرف الناس كيف يوارون جثث موتاهم، وذلك في قصة ابني آدم التي قص الله علينا نبأهما بالحق. {**إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ 27 لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**} إلى قوله: {**فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**} [المائدة: 27 - 30].

فانظر كيف تهوى نفس الإنسان به إلى أي درك؟ حتى تطوع له قتل أخيه الطيب الخير بلا جرم جناه، إلا أن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر، وما ذنب الأخ المسكين في ذلك، حتى يكون جزاؤه القتل؟

إن هذه النفس إذا تركت لغرائزها وحدها أهلكت صاحبها، ولا بد من مجاهدتها ورياضتها حتى تتزكى فتفلح، كما قال تعالى: **{وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا 7 فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا 8 قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا}** [الشمس: 7 - 10].

وبهذا تنتقل من النفس «الأمارة» إلى «النفس اللوامة» التي ذكرها القرآن في مطلع سورة القيامة حين قال: **{لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ 1 وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ}** [القيامة: 1، 2].

و«اللوامة» صيغة مبالغة من اللوم، فهي كثيرة اللوم لصاحبها كلما ارتكب شرًا أو قصر في خير، وهي ما نعبر عنه الآن بـ «الضمير الحي»، وهي التي لا تزال تلوم صاحبها حتى تدفعه إلى التوبة.

وقد ترتقي هذه النفس حتى تصبح «النفس المطمئنة» المذكورة في قوله تعالى: **{يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ 27 ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ}** [الفجر: 27، 28].

ولا ريب أن التائب إلى ربه توبة نصوحًا، قد انتصر في هذه المعركة الكبيرة التي عبرت عنها بعض الكلمات المأثورة التي تقول: «المؤمن بين خمس شدائد: بين مسلم يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يضله، ونفس تنازعه» إنها معركة كثيرة الأعداء، متعددة الميادين، متنوعة

الأسلحة، معركة في الداخل والخارج، تحتاج إلى يقظة وتأهب واستعداد، للجهاد الدائم، والبذل المستمر، والمنصور من نصره الله.

6- انكسار القلب لله:

ومما ثمار التوبة العاجلة: انكسار القلب لله الجليل العظيم، والشعور بحقيقة العبودية والضراعة بين يديه سبحانه، وفي بعض الآثار الإلهية: «إنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

فالتوبة النصوح تحدث في قلب التائب كسرة خاصة لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، الذي شعر بذنبه، وحاصره من كل جانب، فهو يريد أن يصطلح على ربه، ويقف على بابه، بعد الجفوة التي باعدت بينه وبين مولاه بسبب المعصية، ولكن هذه المعصية ولدت له خيرًا، ورب ضارة نافعة، وكم من منحة في طي محنة.

لقد كانت مصيبة المعصية سببًا في إفاقته ويقظة ضميره، وصحوة قلبه، وغلبة إحساسه بفضل ربه، وتفريط نفسه، فيحدث له هذا تحولًا في حياته من الشر إلى الخير، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضياع إلى الالتزام، ومن الإعراض إلى الإقبال.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله في «حكمه»: ربما فتح الله لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية فكانت سببًا في الوصول. معصية أورثت ذلًا لله وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عجبًا واستكبارًا.

هذا الشعور الحي، وهذا التصور الواعي، وهذه الصحوة القلبية: ثمرة لهذا المشهد الذي عبر عنه ابن القيم بمشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار

للرب جل جلاله.

فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة: ضرورة تامة، وافتقارًا تامًا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه، وفلاحه، وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء.

فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلًا منه ولا كثيرًا، فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلًا من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، وإذا سجد

القلب لله - هذه السجدة العظمى - سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظرًا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يرى إلا متملقًا لربه، خاضعًا له، ذليلًا مستعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبة المالك له، الذي لا غنى له عنه، ولا بد له منه. فليس له هم غير استرضاته واستعطافه، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أغضب من حياتي في رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟[201].

7- محبة الله تعالى:

ومن ثمار التوبة: الحصول على محبة الله تعالى، فقد قال سبحانه: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ}** [البقرة: 222].

والحصول على محبة الله تعالى ليس بالأمر الهين، ولا الكسب الضئيل، إنها شيء كبير لا يقادر قدرة، ولا يعرفه إلا أهله.

وإذا كان الناس يسعون جهدهم، ويبذلون وسعهم، للحصول على محبة رئيس أو أمير أو ملك، أو غيرهم من كبراء الدنيا، فإذا ظفر بذلك اعتبر نفسه قد فاز فوزًا عظيمًا، وفاخر بهذه المحبة أقرانه، مع أن هذا الرئيس، أو الأمير لا يستطيع أن يزيد في رزقه درهمًا لم يكتبه الله له، ولا أن يؤخر أجله ساعة ليست من عمره، ولا يملك أن يهب له سكينة في قلبه، أو راحة لضميره، أو

---

(201) «المدارج» (428/1، 429).

صلاحًا لذريته، أو قرة عين بزوجه، أو نحو ذلك من طيبات الحياة التي لا يجدها الملوك أنفسهم، فكيف يهبونها لغيرهم، وفاقد الشيء لا يعطيه؟

إن المسلم يرنو بعينه، ويهفو بقلبه، ويسعى بجهده، لكي يرتقي إلى محبة الله تعالى، لكي يكون محبوبًا لله رب العالمين، وأي منزلة أسمى من هذه المنزلة التي عبر عنها الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ... ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه**».

وإنما يحب الله التوابين؛ لأنه يكره من عباده الشرود عنه، والبعد عن ساحته، والوقوع في أسر عدوه الشيطان، ويحب منهم أن يرجعوا إليه، ويقفوا على بابه، وإن عصوه وقصروا في حقه جل شأنه، فبابه لهم مفتوح، ويده إليهم مبسوطة أبدًا، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ولا يردهم عن عتبته، ويناديهم «**لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعًا**».

ومن ناحية أخرى، نجد التائب - بعد تورطه في معصية الله - يشعر بشدة الحاجة إليه، والافتقار إلى رحمته، والانكسار بين يديه، وعمق الإحساس بحقيقة العبودية له، وغاية الخضوع لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ومن هنا قال العارفون: إن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله تعالى وأكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوابين.

ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه،

فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة، وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعد ما فقدها، وأيس من أسباب الحياة، ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيبًا لله، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب، يوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية ومخها ولبها، يوضحها:

الوجع الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عنه ذله، وانكسار قلبه، كما في الأثر الإسرائيلي: «يا رب أين أجدك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» ولأجل هذا كان «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»، لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

وتأمل قول النبي صصص، فيما يروى عن ربه ززز: «**أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي، ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما لو عدته لوجدتني عنده**» فقال في عيادة المريض «**لوجدتني عنده**» وقال في الإطعام، والإسقاء «**لوجدت ذلك عندي**» ففرق بينهما، فإن المريض مكسور القلب ولو كان من كان، فلابد أن يكسره المرض، فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا - والله أعلم - هو السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم، فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد في نفسه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

والقصد: أن شمعة الجبر والفضل والعطايا، إنما تنزل في شمعدان الانكسار، وللعاصي التائب من ذلك أوفر نصيب: يوضحه:

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه،

فيحدث له انكسارًا، وتوبة، واستغفارًا، وندمًا، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجبًا وكبرًا ومنه، فتكون سبب هلاكه، فيكون الذنب موجبًا لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكسًا رأسه خجلًا، باكيًا نادمًا، مستقبلًا ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكبرًا، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز، من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المانّ بها، وبحاله على الله ﷻ وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه، ويخضعوا له، ويجد في قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيه ذلك كامنًا[202].

8- فرح الله بالتائب:

ومن ثمار التوبة: نيل الفرحة الكبرى التي لا تعادلها ولا تدانيها فرحة، إنها فرحة الرب الأعلى، رب العالمين، بتوبة عبده، ورجوعه إليه بعد شروده عنه، ووقوعه أسيرًا في يد عدوه وجنوده: إبليس اللعين، وهو بالتوبة قد فك أسره، وخرج من سجنه، وخلص من عدوه، وعاد إلى رحاب ربه وحبيبه، الذي غمره بإحسانه، وأحاطه بنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، المادية والمعنوية.

إنها الفرحة الكبرى التي لا نجد في تصويرها والتعبير عن مداها أبلغ من

---

(202) انظر: «المدارج» (1/297 - 299).

حديث رسول الله صصص الذي رواه عنه ابن مسعود أنه قال: «**لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلًا، وبه مهلكة، ومع راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، إذا راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه! فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن، من هذا براحلته**»(203).

ولقد تحدث ابن القيم عن هذا الفرح الإلهي بتوبة التائب حديثًا بليغًا فياضًا، بين فيه أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله.

قال: اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله، وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه إكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

---

(203) متفق عليه.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذه عدوًا له.

والمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق، وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة، والعاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوبًا له، وأعد له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه، قد جاهره بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق، واستقطع عباده، واتخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه على ربهم، وكانوا أعداء له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه، ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه، فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وما لهم، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده: أنه أجود الأجودين، وأكر الأكرمين، وأرحم الراحمين، أنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له، وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويوسعهم فضلًا، ويغمرهم إحسانًا وجودًا، ويتم عليهم نعمته، ويضاعف لديهم منته، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته، وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبدًا: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجود كل جواد فمن جوده، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدول في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ ما يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرًا، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطى؟ ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه، ولله المثل الأعلى.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدى، فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه، ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف بما هو

موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب أبقًا شاردًا، رادًا لكرامته، مائلًا عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسيًا لسيده، منهمكًا في موافقة عدوه، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله: إذا عرضت له فكرة، فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لا بد له منه، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قدم به عليه على أسوأ الأحوال. ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجد في الهرب إلى حتى وصل إلى بابه، فوضع خده على عتبة بابه، وتوسد ثرى أعتابه، متذللًا متضرعًا، خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العليا؛ فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعًا واختيارًا، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود، التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟.

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبودًا: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه، وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خلقت به السموات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر، ونفيه - كما يقول أعداؤه - هو الباطل، والعبث الذي نزه الله نفسه عنه، وهو السُّدى الذي نزه نفسه عنه: أن يترك الإنسان عليه، وهو سبحانه يحب أن يعبد ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئًا لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثًا وباطلًا وسدى، وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين، والإله الحق، فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة، وصار كأنه خلق عبثًا لغير شيء، إذا لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها، بل قلبته شوكًا ودغلًا، فإذا رجع إلى ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها، وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل، فاشتدت محبة الرب له، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يقدر من الفرح، ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي صصص لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره، بعد إياسه من أسباب

الحياة بفقده، وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه، ثم وجده وصار طوع يده، فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًا شديدًا، أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد.

فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟

هذا، ولست الذي أوجدته وخلقته، وأسبغت عليه نعمك، والله ﻋﺰ ﻭﺟﻞ هو الذي أوجد عبده، وخلقه وكونه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، محبًا لوليها، مطيعًا له، عابدًا له، معاديًا لعدوه، مبغضًا له عاصيًا له، والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يحب أن يوالي الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه، ومعصيته، ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا هو حقيقة الفرح[204].

* * *

(204) «مدارج السالكين» (1/264 - 266).

الموانع من التوبة

الاستهانة بالذنوب.

طول الأمل.

الاتكال على أماني العفو الإلهي.

استحكام الذنوب واليأس من المغفرة.

الجهل بحقيقة المعصية.

الاحتجاج بالقدر.

* * *

الموانع من التوبة

التوبة فريضة على جميع المؤمنين، كما جاء في القرآن، وحاجة كل إنسان إليها حاجة أساسية لا يستغني عنها، كما لا يستغني عن الطعام والشراب، والإعراض عن التوبة خطر على الإنسان، قد يودي به، ويوقعه في مهاوي الردى، فهو خطر على قلبه، على إيمانه، على حسن صلته بربه، على حياته الروحية كلها.

ولكن ما الذين يمنع الإنسان من التوبة، ويؤخره عنها، وفيها نجاته وسعادته؟

لا يخفى أن هناك عقبات وموانع تحول بين الإنسان وبين توبته إلى الله تعالى، ينبغي أن نسلط عليها بعض الأشعة الكاشفة، حتى نحاول التغلب عليها، فليس هناك شيء مستحيل، وخصوصًا مع المحاولة وبذل الجهد وصدق العزم، وصحة التوجه.

وجل هذه الموانع - إن لم يكن كلها - موانع نفسية، تنبع من داخل الإنسان، وتؤثر في توجهه وسلوكه.

1- الاستهانة بالذنوب:

من أوائل هذه الموانع: الاستهانة بالذنوب، واعتبارها أمرًا هينًا، لا يزعج ولا يقلق ولا يخيف. وهذا ولا شك من أثر الجهل بمقام الله جل جلاله، خالق الخلق، ومالك الملك، ذي الجلال والإكرام، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه أفضل تكريم، وسخر له ما في السموات، وما في الأرض،

جميعًا معه، واسبغ عليه نعمه ظاهرة، وباطنة، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يفعل في ملكه ما يشاء، العزيز الجبار، الواحد القهار.

هذا الإله العظيم لا يجوز أن يستهان بمعصيته، حتى يقول: ليت كل ذنب فعلته مثل هذا! بل ينبغي أن يتعظم كل ما يصدر عنه من معصية في حق الله ﷻ.

وفي الحديث الذي رواه البخاري عن ابن مسعود: «**المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا وهكذا**».

ومرض بعض الصالحين من السل، فعاده بعض أصحابه فوجدوه يبكي بمرارة وحرقة، فعجبوا لذلك، وسألوه: ما هذا البكاء، ولم نرك في حياتك قد اقترفت كبيرة، أو قصرت في فريضة، أو ضيعت حقًا؟ فكان جوابه: والله ما أبكي على فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها، ولا حق ضيعته، ولكن أبكي، لأني أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم!

وهو يشير إلى ما ذكره القرآن في قصة أم المؤمنين عائشة، وكيف لاكت بعض السنة المسلمين حديث الإفك عنها، الذي أشاعه المنافقون، فتلقفوه بسذاجة وغباء، ونقله بعضهم عن بعض باستهتار، وبلا تهيب فجاء القرآن يعقب ويقول: **{وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ}** [النور: 16]، **{إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ}** [النور: 15].

وقد ذكرت عائشة مرة إحدى ضرائرها، فأشارت إلى أنها قصيرة القامة! فقال رسول الله صصص: «**يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»(205).

ولقد حذرنا رسول الله صصص من «محقرات الذنوب» فقال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا واد، فجاءنا ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**»(206).

2- طول الأمل:

ومن موانع التوبة ومؤخراتها: طول الأمل في الحياة، بمعنى أن يعتبر الإنسان أن الحياة معه لا تزال ممتدة، وأن الموت لا يزال بعيدًا، وأن في العمر متسعًا لمزيد من اللهو والغفلة، واتباع الهوى، والسير في ركاب الشيطان.

إن آفة الإنسان: أنه لا يزال يمني نفسه بطول العيش، ويزيح شبح الموت كلما تراءى أمام عينيه، فابن العشرين يقول: أتوب في الأربعين، وابن الأربعين يقول: أتوب في الستين، وابن الستين، يقول: أتوب في السبعين، أو هكذا يظل الإنسان يستبعد الموت وهو أقر ما يكون إليه، ويسوف التوبة، وهو أحوج ما يكون إليها.

---

(205) رواه أبو داود والترمذي عن عائشة. «صحيح الجامع الصغير» (5140).

(206) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد عن سهل بن سعد ورجاله رجال الصحيح، ورواه «الطبراني» في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة (190/10).

المشكلة أن الموت لا يستأذن قبل مجيئه، ويأتي بغتة، وكثيرًا ما يأتي غير متوقع، فيختطف الصغير قبل الكبير، والشاب قبل الشيخ، والابن قبل أبيه، والبنت قبل أمها.

وأخطر ألوان الموت هو موت الفجأة، الذي يهجم على المرء دون أن يستعد له، أو يهيئ الزاد لسفره، ولهذا استعاذ النبي صصص من شره.

وهذا ما خوف منه الصالحون من قدين، وقال قائلهم:

تزود للذي لا بد منه   فإن الموت ميقات العباد!
اترضى أن تكون رفيق قوم   لهم زاد وأنت بغير زاد؟

وفي عصرنا كثرت أسباب الموت المفاجئ، مما لم يكن مثله في العصور الماضية، رغم تقدم الطب والتفوق في العلاج.

فطالما سمعت الناس يموتون فجأة: بالسكتة القلبية، أو الذبحة الصدرية، أو الجلطة المخية، أو غير ذلك مما نعرفه وما لا نعرفه.

كما أن الموت في الحوادث أصبح كثيرًا جدًا، فهذا يموت في حادثة سيارة، وآخر في باخرة، وثالث في قطار، ورابع في طائرة، وهذا ثمن الحضارة.

لا معنى إذن لأن يستبعد الإنسان الموت، وهو يرى صرعاه في كل حين، ولو نظر فيما حوله ومن حوله، وفكر وتأمل: كم شيع من قريب، وكم ودع من حبيب، وكم دفن من رفيق، وكم عزى في صديق، لو تذكر قائمة الأسماء التي واراها الترب ممن يعرفهم ويتصل بهم لهاله طول القائمة واتساعها.

ومن هنا علمنا رسولنا الكريم أن نعيش في الدنيا بروح الغرباء، فنحن في

هذه الدار ضيوف راحلون حتمًا، غدًا أو بعد غد، فهي دار ممر لا دار مقر، يقول عليه الصلاة والسلام: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور**»، وكان ابن عمر يقول: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك**»(207).

ومن رجزهم الذي كانوا يتناشدونه في عهد الصحابة:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله!

ومن أشعار من بعدهم من الصالحين:

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل: هل تعيش إلى الفجر؟

فكم من سليم مات من غيرة علة وكم من سقيم عاش حينا من

وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيًا وقد نسجت أكفانه، وهو لا يدري!

3- الاتكال على أماني العفو الإلهي:

ومن الموانع التي تؤخر التوبة: الاتكال على عفو الله تعالى وسعة رحمته كما حكى الله تعالى عن اليهود، أنهم: {**يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**} [الأعراف: 169].

وهذا لا شك من الغرور القاتل، فمن أين يضمن أن الله تعالى سيغفر له؟ وهل أخذ موثقًا أو صحكًا من الله تعالى بذلك؟ وهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ولا معقب لحكمه.

إن فرق ما بين المؤمن والمنافق: أن المؤمن يعمل الصالحات، ويقول:

---

(207) رواه البخاري.

أخشى ألا تقبل مني! والمنافق يقترف السيئات، ويقول: أطمع أن تغفر لي.

صحيح أن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء، كما أن علمه وسع كل شيء، وهو ما قاله الملائكة في دعائهم: {رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا} [غافر: 7]، وقال تعالى في خطابه لكليمه موسى ﷺ: {قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ} [الأعراف: 156].

فجعل العذاب خاصًا، والرحمة عامة، ولكنه تعالى عقب على ذلك فقال عن هذه الرحمة: {فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ 156 ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ...} [الأعراف: 156، 157]، وقال تعالى: {إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} [الأعراف: 56].

إن الرجاء في رحمة الله يتطلب عملًا يقرب المرء من هذه الرحمة، مثل الإيمان والهجرة والجهاد، كما قرأنا ذلك في قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} [البقرة: 218]. فلم قرر لهم الرجاء إلا بعد اجتياز هذه المراحل الصعبة.

وفرق بين الرجاء والأمنية: الرجاء ما قارنه عمل وسعي، وإلا فهو أمنية فارغة، كما قال علي - كرم الله وجهه - في وصيته لابنه: «وإياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النوكي: أي الحمقى». ويقول الشاعر:

ولا تكن عبد المنى، فالمنى رؤوس أموال المفاليس!

وقال آخر:

اعلل بالمنى قلبي، لعلي أروح بالأماني الهم عني!
واعلم أن وصلك لا يرجى ولكن لا أقل من التمني!

ولقد حكى الله لنا هذا اللون من الأماني عن اليهود والنصارى حيث قال: **{وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ 111 بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ}** [البقرة: 111، 112]، هذا ما قرره القرآن عن هؤلاء: تلك أمانيهم، تمن للجنة بلا عمل، وإنما ينال الجنة من جمع وصفين أساسيين: إسلام الوجه لله والإحسان.

وفي سورة أخرى يقول تعالى حكمًا عدلًا بين أهل الكتاب والمسلمين: **{لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا 123 وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا}** [النساء: 123، 124].

لا تنس يا أخي المسلم أن الله تعالى لم يسامح نبيه آدم في لقمة أكلها من الشجرة بعد أن نهاه عنها، وهو الذي خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته! ولا تنسى أنه جل جلاله لم يسامح نوحًا سسس في كلمة قالها يشفع بها لابنه الكافر: **{فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ 45 قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ}** [هود: 45، 46]. فانظر إلى هذا الرد الشديد على شيخ المرسلين حتى لا تطمع في غير مطمع، وتأمل قول الشاعر:

يا ناظرا يرنو بعيني راقد ومشاهدا للأمر غير مشاهد!
تصل الذنوب إلى الذنوب نيل الجنان، ودرك فوز العابد

أنسـيت أن الله أخـرج آدمـا منهـا إلـى الـدنيا بـذنب واحـد؟!

فلا مجال - إذن - لأولئك المسرفين على أنفسهم، المفرطين في جنب ربهم وبارئهم، المقصرين في حقوق غيرهم، أن يؤجلوا التوبة قائلين: إن الله غفور رحيم، فإن هذا جهل بمقام الله تعالى، ونظرة إلى جانب من كمالاته ﷻ، دون استيعاب الجوانب الأخرى، فقد قال تثت: {**نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ 49 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ**} [الحجر: 49، 50]

وقال سبحانه: {**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ**} [الرعد: 6].

وهذا يعتبر من العجز والحماقة، وليس من الفطنة والكياسة كما في الحديث النبوي الذي رواه الترمذي: «**الكيس: من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»[208].

وقد أنكر صالحو الأمة على من فرط في حق ربه، ثم اتكل على عفوه ومغفرته، وقال شاعرهم في ذلك:

مـا بـال قلبـك تـرض أن تدنسـه وثوبـك - الـدهر - مغسـول مـن

ترجـو النجـاة ولـم تسـلك مسـالكها إن السـفينة لا تجـري علـى اليـبس!

إن الرجاء في عفو الله ومغفرته سبحانه مطلوب من كل مسلم، وإن كثرت معاصيه وعظمت خطاياه، فهو من ضرورات السير إلى الله تعالى، ولكن لا ينبغي أن يرجو الإنسان ثمرة، دون أن يبذر بندرة، أو يغرس شجرة، ويتولى

(208) رواه ابن ماجه عن شداد بن أوس، وفي إسناده بقية بن الوليد، وهو مدلس وقد صرح بالتحديث (4260)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (251/4)، كما رواه الترمذي بسند آخر وحسنه، وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم، وكان قد اختلط بعد أن سرق بيته.

سقايتها ورعايتها ... فإن المبالغة في الرجاء بغير عمل يقدم، أو جهد يبذل، يجعله نوعًا من الأمن من مكر الله تعالى، وهو باب الخسران، يقول ﷻ: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ} [الأعراف: 99].

4- استحكام الذنوب واليأس من المغفرة:

ومن موانع التوبة لدى بعض الناس: أن يعيش بعيدًا عن ساحة الله، وأن يغوص في أوحال الذنوب صغائرها وكبائرها، مرتكبًا للمحظورات، تاركًا للمأمورات، مضيعًا للحقوق، ما كان فيها من حقوق الله، وما كان منها من حقوق العباد، لقد كان في الذين أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، لم تعرف عينه الدموع، ولا قلبه الخشوع، ولا ظهره الركوع، ولا جبهته السجود، لم يكن المسجد له دارًا، ولا المصحف له أنيسًا، ولا النبي له أسوة، ولا الصحابة له قدوة.

وفجأة صحا من سكرته، وتنبه من غفوته، فوجد البون بينه وبين أهل الخير والصلاح شاسعًا، وأين الثرى من الثريا، إن ذنوبه - وما أكثرها - تثقل ظهره، وتغل قدمه، فلا يستطيع أن يتحرك إلى الأمام، وهل يقبله الله بعد هذه الحياة المظلمة بالمعاصي، التي لم يكن يرى فيها شعاعًا من نور، وهل يفتح له الباب بعد طول الشرود إلى أبواب أخر غير باب الله؟

إنه هالك لا محالة، قد كتبت عليه الشقوة والضياع، فلا أمل في عودته، ولا رجاء في قبوله، ولا طمع في العفو عنه، فليستمر في غلوائه، وليمض في طريقة الأعوج، طريق الشيطان، طريق النهار الأسود والليل الأحمر.

هكذا يفكر بعض العصاة، يستعظمون ذنوبهم ويقنطون من غفرانها،

ويغلقون الأبواب أمام أنفسهم، ناسين أن مغفرة الله تعالى أوسع من ذنوبهم وإن كثرت، وأن رحمته لا تضيق يومًا بخطاياهم، وإن تفاقمت، فقد قال تعالى لرسوله: {قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

وانظر إلى هذه الإضافة العذبة الرقيقة ما ألطفها وما أنداها «يا عبادي» فرغم عصيانهم له تعالى وإسرافهم على أنفسهم، لم يحرمهم شرف الانتساب إليه، والعبودية له جل شأنه، وهو ينهي هؤلاء المسرفين عن القنوط من رحمة الله، مؤكدًا أنه جل ثناؤه يغفر الذنوب جميعًا بهذا الإطلاق، وهذا التعميم، حتى الشرك، لأن المقصود أنه يغفرها بالتوبة، وفرق بين هذه الآية والآية الأخرى في سورة النساء: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ} [النساء: 48]: فهذه في غير التائبين، فكل ذنب قابل للغفران ولو بغير التوبة، ما عدا الشرك.

إن الخوف من الله تعالى مطلوب، وهو - مثل الرجاء - زاد ضروري في السفر إلى الله، والوصول إلى رضوانه، ولكن المبالغة في الخوف قد تنتهي بالإنسان إلى اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، فقد قال تعالى: {إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ} [يوسف: 87] {قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ} [الحجر: 56].

ولهذا قال علي ررر: «ألا أنبئكم بالفقيه؟ كل الفقيه من لم يوئس عباد الله من روح الله، ولم يؤمنهم من مكره».

وهذا هو التوازن المنشود: أن يرجو المسلم ربه رجاء لا ينتهي به إلى

الأمن من مكر الله، وأن يخافه خوفًا لا ينتهي به إلى اليأس من روح الله تعالى.

وقد وصف الله بعض عباده بأنهم: **{وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}** [الإسراء: 57]، **{أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ}** [الزمر: 9].

فلا ينبغي للمذنب أن يقنط من رحمة ربه وإن كثرت ذنوبه وعظمت.

وفي الحديث القدسي: «**يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي**»(209) يعني: على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاظمني ذلك، ولا استكثره. وفي «الصحيح» عن النبي صصص، قال: «**إذادعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء**»(210).

فذنوب العباد وإن عظمت، فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم، فهي صغيرة في جنب عفو الله ومغفرته.

وفي «مستدرك الحاكم»(211) عن جابر أن رجلًا جاء إلى النبي صصص يقول: واذنوباه! واذنوباه! مرتين أو ثلاثًا، فقال له النبي صصص: «**قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، رحمتك أرجى عندي من عملي**»، فقالها، ثم قال له: «**عد**»، فعاد، ثم قال له: «**عد**» فعاد، فقال له: «**قم، فقد غفر الله**

---

(209) رواه الترمذي (3540) عن أنس وقال: حديث حسن غريب.

(210) رواه من حديث أبي هريرة أحمد (457/2)، و البخاري في «الأدب المفرد» (607)، ومسلم (2679)، ابن حبان (896).

(211) (543/1، 544)، وقال الحاكم: حديث رواته عن آخرهم مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

لك»، وفي هذا يقول بعضهم:

يا كبير الذنب عفو الـ ... ـله من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء في جا ... نب عفو الله يصغر

وقال(212):

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم!
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يرجو ويدعو المجرم؟
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلم!

قال الفضيل بن عياض حمحمه: ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم مني جودًا؟ والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب، أكلؤهم في مضاجعهم، كأنهم لم يعصوني، وأتولي حفظهم، كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحيته؟ أنا الفضل، ومني الفضل، أنا الجواد، ومني الجود، أنا الكريم، ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أُعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلائق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟ خرجه أبو نعيم(213).

ولبعضهم في المعنى:

---

(212) هذه الأبيات وما قبلها لأبي نواس، وهي في «ديوانه» (ص 618، 620).
(213) في «الحلية» (8/92 - 93).

أسـأت ولـم أحسـن وجئتـك تائبًـا   وأنــي لعبـد عـن مواليـه مهـرب؟

يؤمــل غفرانًــا فــإن خــاب ظنــه   فما أحد منـه على الأرض أخيب!

5- الجهل بحقيقة المعصية:

ومن موانع التوبة: أن يكون المكلف على معصية من معاصي الله، وهو لا يشعر بها، ولا يعلم أنه على معصية، لعلها من أعظم المعاصي ضررًا، وأشدها خطرًا. ولهذا صورًا أذكر اثنتين منها:

الأولى: أن يكون المرء معجبًا ببعض الطاعات الظاهرة التي يؤديها ببدنه، من صلاة وصيام، وذكر وتسبيح وتلاوة، وصدقة وتعليم، فتعظم رؤيته لها، والتفاته إليها، وإعجابه بها، برغم ما قد يشوبها من آفات خفية فهذا «العجب» من المهلكات التي تحجب السالك إلى الله عن معرفة عيوب نفسه، وتعمي عين قلبه عن رؤية حقيقة أعماله، وخفايا سيئاته وخطاياه.

فربما كان غارقًا أو غريقًا في معاصٍ هي أشد خطرًا من الزنى وشرب الخمر، وهو لا يدري: معاصي القلوب التي تردي الكثيرين في مهاوي الردى وهم لا يشعرون، فربما كان هذا المرء حسودًا أو حقودًا أو مستكبرًا أو مغرورًا، أو شحيحًا أو مرائيًا، أو محبًا للدنيا، أو للمال والجاه، أو غير ذلك من الذنوب الهائلة التي تأكل الحسنات، وتلتهم الطاعات كما تلتهم النار الحطب، والتي تحول بين صاحبها والجنة، كما في الحديث الصحيح: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثال ذرة من كبر»**(214). **«إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم»**(215)، **«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع**

(214) رواه مسلم عن ابن مسعود. «صحيح الجامع الصغير» (7674).

(215) رواه مسلم عن جابر. المصدر السابق (102).

وإعجـاب المـرء برأيـه» [216]، **«دب إلـيكم داء الأمـم مـن قـبلكم: الحسـد والبغضـاء، والبغضـاء هـي الحالقـة، لا أقـول: تحلـق الشـعر، ولكـن تحلـق الدين»**[217].

والثانيـة: أن يقيم علـى بدعـة مـن البـدع المضـلة التـي أبطلهـا الله ورسـوله، وهـو يحسـب ـ كسائر المبتدعين ـ أنـه يتقرب بهـا إلـى الله تعـالى، سـواء كانـت بدعة عملية كالبدع في العبادات، شأن الذين يشرعون في الدين مـا لـم يـأذن بـه الله، ويتقربـون إلـى الله تعـالى بمـا لـم يشـرعه لعبـاده، جـاهلين، أو متجـاهلين: الأصلين الكبيرين:

الأول: ألا يعبد الله تتت

والثـاني: ألا يعبـد إلا بمـا شـرع لا بـالأهواء والبـدع، وفـي الحـديث المتفـق عليه: **«من أحدث في أمرنـا مـا ليس منه فهو رد»**.

أم كانت بدعة قولية، من بدع الأفكـار والآراء التـي أحدثتها فرق شتـى، لـم تجعـل الكتـاب والسنة أصـلها الـذي تستند إليـه، ومصـدرها الـذي تعـول عليـه، لتحكم آراءها وأقوالها وأقوال شيوخها ومعظميها إليهمـا كمـا قـال تعـالى: **{فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ}** [النسـاء: 59]، بـل جعلـت آراءهـا وآراء مـن تعظمهـم ـ وربمـا كـانوا مـن خـارج الإسـلام ـ هــي الأصـل والمرجـع والمعتمـد، فمـا وافقهـا فهـو مقبـول، ومـا عارضها فهو مرفوض.

---

(216) رواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (3045).

(217) رواه أحمد والترمذي عن الزبير. المصدر السابق (3361).

هذا الصنف من الناس محجوب عن رؤية بدعته ومخالفتها لأمر ربه، وحقيقة دينه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: {**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا**} [فاطر: 8]، وقال: {**ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا**} [الكهف: 104].

وهكذا كان الخوارج قديمًا، يستحلون دماء المسلمين خارج فرقتهم، ويستبيحون أموالهم، ويعدون ذلك قربة إلى الله تعالى: وقد صح الحديث فيهم: «**يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**» ومع هذا وصفهم بأنهم «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الذين كما يمرق السهم من الرمية**» فآفتهم أنهم لم يتعمقوا في فقه القرآن ومقاصده، أنهم فهموه فهمًا سطحيًا، وقرؤوه دون أن يتعمقوا فيه، فسقطوا في هذه الكبائر الموبقات وهؤلاء لهم خلف في عصرنا يتعبدون بقتل المسلمين الأبرياء، من المدنيين العزل، حتى النساء والأطفال والشيوخ بأبشع وسائل القتل والذبح، ويباهون بذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الخطر مما نبه عليه سلف الأمة: أن صاحب البدعة لا يتوب منها، إذ كيف يتوب من أمر يعتقده قربة وطاعة؟

6- الاحتجاج القدر:

ومن موانع التوبة: الاحتجاج الجاهل بالقدر، فمن الذين سقطوا في شرك المعاصي، وغرتهم الأماني وغرهم بالله الغرور، من إذا دعوته إلى التحرر من أغلال المعصية، والبراء من أهلها، والدخول في عالم الطاعة والمطيعين لله، يقول لك: هذا قدري، كتبه الله على وقدره في الأزل، والمكتوب لا مهرب

منه، وعلى الإنسان أن يرضى بقدره ويستسلم لقضائه، فالقدر لا شك أقوى منا، ونحن أضعف من أن نقاومه.

وهذا كلام مدخول، خال من الفقه بدين الله، والفقه بسنن الله، وهو يدور في فلك الفكرة التي قالها المشركون قديمًا محتجين على شركهم وتحريمهم ما أحل الله: **{لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}** [الأنعام: 148]، فهم يدعون أن شركهم وتحريمهم واقع بمشيئة الله تعالى.

ورد عليهم القرآن بقوله: **{كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}** [الأنعام: 148].

قد يقبل الاحتجاج بالقدر فيما مضى من العمل، وإن كان الواجب ألا يفعل ذلك، أعني: ألا يقول: قضى الله علي أن أعصيه - بل يقول ما قاله أبواه، آدم وحواء: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا}** ... وما قاله كليم الله موسى: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي}** وما قال ذو النون في بطن الحوت: **{لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}** [الأنبياء: 87].

وفيما ترويه كتب الرقائق: أن رجلًا وقع في معصية، فقام يناجي ربه قائلًا: «إلهي، أنت قضيت، أنت قدرت، أنت حكمت، فسمع صوتًا يقول له: هذا حق الربوبية، فأين أدب العبودية؟ فقال: إلهي، أنا عصيت، أنا أسرفت، أنا ظلمت ... فسمع كأن الله يقول له: وأنا غفرت، وأنا عفوت، وأنا رحمت».

أقول: لو جاز قبول الاحتجاج بالقدر على سوء العمل، لكان ذلك بالنسبة للماضي، أما بالنسبة للمستقبل، فلا يقبل بحال، لأن المكلف لا يعرف ماذا قدر

له فيه، ويجب عليه أن يدفع القدر بالقدر، يدفع قدر الذنوب بقدر التوبة والاستغفار، كما هو شأن المؤمن القوي، والمؤمن الصادق البصير بدينه يعلم أن وظيفته، كما قال الإمام ابن القيم: «مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك، فيرد القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين»، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا، فانفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر، لا من يكون مستلمًا مع القدر»!! ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم؟

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة، وهي من قدره، بالحسنة، وهي من قدره، وكذلك الجوع من قدره، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصيًا، وكذلك البرد والحر والعطش، كلها من أقداره، وأمر بدفعها بأقدار تضادها، والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبي صصص عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذا قالوا: يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»(218).

وفي الحديث الآخر: «**إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض**».

---

(218) رواه الترمذي في «الطب» (2066) عن أبي خزامة - او ابن أبي خزامة عن أبيه، وقال: هذا حديث حسن. وفي بعض النسخ: حسن صحيح.

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله، وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟

وكذلك المعصية إذا قُدرت عليك، وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتوبة النصوح، وهي من القدر[219].

* * *

---

(219) «مدارج السالكين» (1/199 - 200).

البواعث على التوبة

معرفة مقام الله تعالى وحقه.

ذكر الموت والقبر.

ذكر الآخرة والجنة والنار.

معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة.

خاتمة.

* * *

البواعث على التوبة

التوبة منزلة عظيمة من منازل الدين، ومقام رفيع من مقامات المتقين، وحاجة كل مسلم مكلف إليها - وخصوصًا السالك في طريق الله - حاجة ماسة، ولهذا كان شأنها شأن كل منازل الدين، وأخلاق الصالحين لا تخلو من عقبات وموانع تعوق طريقها، وتحول دون الوصول إليها، كما أن لها بواعث ودوافع تحفز عليها، وتحض على التزامها.

ونود في هذا الفصل أن نبحث في هذه البواعث، وأن نلقي الضوء عليها، حتى نحرك الهمم، ونشحذ العزائم للتوبة إلى الله جل ثناؤه.

* * *

1- معرفة مقام الله تعالى وحقه

أول هذه البواعث: أن يعرف الإنسان مقام ربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وأن يعرف حقه على عباده الذين خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم بجلائل النعم ودقائقها **{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ}** [النحل: 53].

وحقه تعالى على عباده: أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئًا، وأن يذكروه فلا ينسوه، ويشكروه فلا يكفروه، ويطيعوه فلا يعصوه.

روى الشيخان عن معاذ بن جبل أنه كان رديفًا للنبي صصص على حمار، فقال له: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله: ألا يعذبهم**».

ومهما يقدم الإنسان من العبادة لله ززز، فلن يوفي حق الله تعالى عليه، لأن نعم الله عليه: أعظم من عبادته له سبحانه، وإن طال العمر.

يقول رسول الله صصص: «**لو أن رجلًا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله تعالى، لحقره يوم القيامة**»(220).

والإنسان إذا عرف مقام الله تعالى - وتذكر جلاله وعظمته، وعلمه به، وقدرته عليه، وأنه مطلع على سره وعلانيته، وأنه لا يخفى عليه خافية **{يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى}** وأنه محاسبه على ما قدم، ومجازيه على ما عمل من خير أو شر، إذا عرف ذلك وذكره ولم ينسه، سرعان ما يرجع إلى ربه سبحانه تائبًا

(220) رواه أحمد والبخاري في «التاريخ»، والطبراني عن عتبة بن عبد، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (5249).

مستغفرًا، كما قال تعالى في وصف المتقين: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ}** [آل عمران: 135]، فانظر كيف جعل استغفارهم لذنوبهم نتيجة لذكرهم لربهم **{ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ}** والذكر هنا ليس باللسان كما قد يتوهم، بل هو ما يقابل النسيان كما قال تعالى: **{وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ}** [الكهف: 24] أي استحضروا جلال الله تعالى وشهدوا أسماءه الحسنى، مثل: العليم بذات الصدور، والرقيب والحسيب، الواحد القهار، والعزيز الجبار: **{غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ}** [غافر: 3].

ولا يليق بالمسلم إذا غرته نفسه أو غره بالله الغرور، فسقط في المعصية: أن يتمادى فيها، ويصر عليها ولا يسارع بالتوبة منها، يجرئه على ذلك أن الله تعالى لم يعاجله بالعقوبة، فإنه - جل شأنه - يمهل ولا يهمل، ويملي للعاصي، والظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ولا تحسبن الله غافلًا عما يفعل العصاة والفجار، فقد يكون ذلك عن مكر بهم، واستدراج لهم، حتى إنه قد يوسع عليهم في الرزق، ويمدهم بالمال والبنين، ثم يأخذهم في النهاية أخذ عزيز مقتدر **{إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ}** [هود: 102].

يقول ابن عطاء الله في «حكمه»:

خف من وجود إحسانه - تعالى - إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجًا لك.

يشير إلى قوله تعالى: **{سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ 182 وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ}** [الأعراف: 182، 183].

والاستدراج: أخذ النعمة من المستدرج شيئًا فشيئًا وهو لا يشعر.

وقال سهل بن عبد الله في معنى الآية: نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها، حتى إذا ركنوا للنعمة وحجبوا عن المنعم، أخذوا.

وقال غيره: كلما أحدثوا معصية، أحدثنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا}** [آل عمران: 178].

وقال تعالى: **{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ 55 نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ}** [المؤمنون: 55، 56].

وقال جل شأنه: **{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ 44 فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}** [الأنعام: 44، 45].

يقول ابن عطاء الله في «حكمه»:

إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء، فاشهد ما منَّه «تعالى» إليك، وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن، فاشهد ما منك إليه!

ويعني بما منه إليك: النعم التي تغمرك من كل جانب، وقد أسبغها عليك ظاهرة وباطنة، كما قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً}** [لقمان: 20]، وقال تعالى: **{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** [إبراهيم: 34].

وهناك نعم أساسية، وهي: نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة التيسير والإمداد،

ونعمة الحفظ والإبعاد، أي إبعاد المحن والبلايا عن الإنسان.

وأما ما كان منك إليه سبحانه، فيعني به: التقصير في أداة ما أمر، واقترف ما عنه زجر، وعدم الرضا بما قضى القدر.

وقلما يخلو مكلف من وقوع بعض هذا منه: من التفريط في المأمور، أو ارتكاب المحظور، أو السخط على المقدور.

* * *

2- ذكر الموت والقبر

ومن البواعث على التوبة من الذنوب: أن يتذكر المرء الموت، الذي هو مصير كل حي، قصر عمره أو طال، فهو حوض كل الناس وارده، وكأس كل حي شاربه.

حتى أحب الخلق إلى الله الأنبياء والرسل، وخاتمهم ومصطفاهم محمد، كتب عليهم الموت، كما كتب على غيرهم، قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صصص: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}** [الزمر: 3]، وقال له في موضع آخر: **{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ 34 كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}** [الأنبياء: 34، 35].

إن الموت أصدق غائب ينتظر، وهو حقيقة بينة للحس وللعقل لكل الناس، وهو أحد الواعظين اللذين تركهما النبي صصص من بعده: الواعظ الناطق، وهو القرآن والواعظ الصامت، وهو الموت، وكفى بالموت واعظًا لمن كان له القلب يحس، وعقل يعتبر.

وما أصدق ما قال الشاعر في ميت عزيز عليه:

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا!

إن الموت يختطف الأب من بنيه، والابن من أمه وأبيه، والأخ من أخيه، ومن فصيلته التي تؤويه، والحبيب من حبيبه، والملك من فوق عرشه، والقائد وهو بين أسلحته وجنوده، والثري ومعه ملايينه وبلايينه، لا يستأذن أحدًا قبل أن يأخذه، كبيرًا أو صغيرًا، غنيًا أو فقيرًا، مأمورًا أو أميرًا، كلهم لسلطانه خاضعون، ولدعوته ملبون: **{فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}** [يونس: 49]،

{كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ} [القصص: 88].

ويعمر الإنسان ويطول أجله في الحياة، ولكنه في النهاية ميت، وعند الموت تتضاءل حياته، وينكمش عمره، حتى ليتمنى لو يمد له قليلًا، وهيهات هيهات لما يتمنى.

وقد حكوا أن نوحًا سسس حين جاءه ملك الوت يتوفاه، قال له: يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: وجدتها كدار لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر!

فهذا مقدار الدنيا عنده، وقد لبث في قومه - يدعوهم إلى الله - ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم أخذهم الطوفان وهم ظالمون، فكم بقى بعد الطوفان، وكم كان عمره حين بعثه الله إلى قومه؟

وإذا كان آخر العمر موتا فسواء قصيره والطويل!

ومن هنا ذكرنا القرآن بالموت وشموله لكل الخلق، لا يمتنع منه نبي بنبوته، ولا أمير بإمارته، ولا غني بثروته، ولا ذو حصن بحصنه **{أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ}** [النساء: 78].

وقال تعالى: **{قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ}** [الجمعة: 8].

وقال سبحانه: **{كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ 26 وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ}** [الرحمن: 26، 27]

ولما جاء الموت رسول الله صصص ولحق بربه، قال بعض الصحابة: لم يمت، فوقف أبو بكر الصديق يقول: «أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلا: **{وَمَا مُحَمَّدٌ**

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ [آل عمران: 144]».

وقال رسول الله صصص: «**أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت**»(221).

وقد ابن عمر: أتيت النبي صصص، عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس؟ «أي أعقلهم» وأكرم الناس يا رسول الله؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا للموت، وأشدهم استعدادًا له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة**»(222).

وشكت امرأة إلى عائشة ررر قساة قلبها، فقالت لها: أكثري ذكر الموت يرق قلبك.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني، فقال: لست أول خليفة يموت، قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك! فبكى عمر لذلك.

وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرًا، وكان ينام فيه كل يوم مرات، يستديم بذلك ذكر الموت! وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد!

---

(221) رواه الترمذي في «الزهد» (2308)، وقال: حسن غريب. وفي بعض النسخ صحيح، وابن ماجه (4258) كلاهما عن أبي هريرة.

(222) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء»: أخرجه ابن ماجه مختصرًا، وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد «الإحياء» (451/4) طـ. دار المعرفة.

وقال مطرف بن عبد الله: إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه؟!

فلينظر الإنسان العاقل: كم شيع من الأقارب والأحباب، وكم دفن من الزملاء والأصحاب، وليستحضر صور هؤلاء وكيف كانوا في الحياة آمنين، ثم فجأهم الموت غير مستعدين، وليتذكر كيف كان إقبال الواحد منهم على الدنيا، وحرصه عليها، ومزاحمته فيها، ورغبته في الازدياد من متاعها، والاستمتاع بملذاتها، وكيف كان نشاطه وسعيه، وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت والآخرة، وركونه إلى القوة والشباب، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وميله إلى اللهو واللعب، وغفلته عما ينتظره من الموت، حق جاءه على غير موعد، فقال: **{رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ 10 وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ}** [المنافقون: 10، 11].

ومن الحماقة أن يذكر الموتى ويستبعد نفسه أن يكون واحدًا منهم في أي لحظة، يقول أبو الدرداء ررر: «إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم»!

وقال عمر بن عبد العزيز: «ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم: غاديًا أو رائحًا إلى الله ززز قد قضى نحبه، وانقطع أمله، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وقطع الأسباب، وخلف الأحباب، وواجه الحساب»!.

ذكر أحوال الناس عند الاحتضار:

ومما يتصل بذكر الموت: ذكر أحوال الناس إذا حضرهم الموت.

وأول ما يجب أن نذكره في ذلك: حال رسول الله صصص، فقد أحس بدنو أجله بعلامات شتى، منها: أن جبريل كان ينزل في كل رمضان، فيعرض عليه القرآن مرة - وفي آخر رمضان - عرض عليه القرآن مرتين، ومنها: نزول قوله تعالى: **{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ}** [المائدة: 3] وهو ما أبكى أبا بكر ررر، إذ ما بعد الكمال إلا النقصان**!** ومنها: نزول سورة النصر، ولهذا كان صصص يعلم الناس في حجة الوداع، ويقول: خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا! ... وقال لأصحابه يومًا: «**إن عبدًا خيره الله بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختر ما عنده**» فبكى أبو بكر، وقال: نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله**!** لأنه فهم أنه المراد من هذا الكلام.

قالت عائشة: سمعت النبي صصص يقول في مرضه الذي مات فيه - وأخذ بحة - يقول: **{مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا}** [النساء: 69].

وفي رواية: أنه جعل يقول: في الرفيق الأعلى، وهو الرفيق المذكور في الآية السابقة.

وقالت عائشة: أنها سمعت النبي صصص وأصغت إليه قبل أن يموت، وهو مسند إلى ظهره يقول: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى**».

وقالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صصص وذلك ليتضاعف له الأجر.

قال: وبين يديه ركوة - أو علبة - فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه، يقول: لا إله إلا الله! إن للموت سكرات، ثم نصب يده بجعل يقول: في الرفيق الأعلى. وعن أنس قال: لما ثقل النبي صصصص جعل يتغشاه، فقالت فاطمة سسسا: واكرب أباه! فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»!

وكل هذه في «صحيح البخاري» وغيره(223).

ولما احتضر أبو بكر ررر، جاءت عائشة إليه فتمثلت بهذا البيت من الشعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا، وضاق بها

فكشف أبو بكر عن وجهه، وقال: ليس كذا، ولكن قولي: **{وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ}** [ق: 19]، وقال: انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت!

ودخلوا عليه، فقالوا: ألا ندعو لك طبيبًا ينظر إليك؟ فقال: قد نظر إلي طبيبي، وقال: إني فعال لما أريد!

وحين طُعن عمر ررر وعرف الصحابة أنه ميت، قال ابن عباس: فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله، قد كان لك صحبة مع رسول الله، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة! فقال عمر: وددت أن ذلك كان كفافًا لا علي ولى لي!

---

(223) انظر: البخاري مع «الفتح» (8/129 - 150) طـ. دار الفكر المصورة عن السلفية.

ولما أصيب عثمان ررر من دعاة الفتنة الثائرين عليه، دعا الله تعالى: اللهم أجمع أمة محمد صصص ... ثلاثًا ... وروي أنه حين رب، والدماء تسيل على لحيته، جعل يقول: **{لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}** [الأنبياء: 87].

ولما ضرب ابن ملجم عليًّا ررر قال: فزت ورب الكعبة، ثم أوصى بنيه وصية إسلامية جامعة، ثم لم ينطق إلا بـ «لا إله إلا الله» حتى قبض. ولما حضر الحسن بن علي ررررب الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أقدم على سيد لم أره!

وعند موت معاوية تمثل بقول الشاعر:

هو الموت لا منجى من الموت، نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع!

اللهم فأقل العثرة، واعف عن الزلة، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك، ولم يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، يا رب أين لذي خطيئة مهرب إلا إليك!

وروي أنه قال: ليتني كنت رجلًا من قريش بذي طوى «موضع بمكة» وإني لم أل من هذا الأمر شيئًا!

ولما حضرت الوفاة عبد الملك بن مروان، قال: أشرفوا بي على الغوطة «في دمشق» ففعلوا، فرأى غسالًا يلوي ثوبًا بيده، ثم يضرب به المغسلة، فقال: ليتني كنت غسالًا آكل من كسب يدي يومًا بيوم، ولم أل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم - التابعي الجليل - فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت، يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هو فيه!

وقيل له في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال:

أجدني كما قال الله تعالى: {وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ} [الأنعام: 94] ومات.

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر، فقد أحيا الله بك سننًا، وأظهر بك عدلًا، فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي ألا تقوم بحجتها بين يدي الله ... فكيف بكثير مما صنعنا؟! وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات.

وحكى عن هارون الرشيد: أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: {مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ 28 هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ} [الحاقة: 28، 29].

وفرش ابنه المأمون رمادًا، واضطجع عليه، عند موته، وهو يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه!

وحين حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال: انتظر رسولًا يبشرني بالجنة أو النار.

وعن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت فقيل له: لم تجزع؟ قال: أخشى آية من كتاب الله وهي قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ} [الزمر: 47] فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسب.

وحين حضر الفضيل بن عياض الوفاة، غشي عليه ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه، واقلة زاده!

وعند احتضار عبد الله بن المبارك قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب! فبكى نصر، فقال له عبد الله: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من

السعة والنعيم، وها أنت ذا تموت فقيرًا غريبًا! فقال: اسكت، فإني سألت الله ﻷ أن يحييني حياة الأغنياء، ويميتني موت الفقراء!

وبكى بعضهم عند موته، فقيل له: ما يبكيك قال: آية في كتاب الله: {**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ**} [المائدة: 27].

ودخل الحسن البصري على رجل يجود بنفسه، فقال: إن أمرًا هذا أوله لجدير أن يتقي آخره، وإن أمرًا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله.

ودخل المزني على الشافعي - رحمة الله عليهما - في مرضه الذي توفي فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله تعالى واردًا، ولا أدري: أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي … جعلت رجائي نحو عفوك سلّما
تعاظمني ذنبي، فلما قرنته … بعفوك ربي، كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم … تجود وتعفر منة وتكرما(224)

* * *

(224) روى كل هذه الآثار الغزالي في «الإحياء» في كتاب التفكر، وبين شارحه الزبيدي في «الإتحاف» من أخرجها.

3- ذكر الآخرة والجنة والنار

ومن البواعث على التوبة بعد ذكر الموت: ذكر ما بعد الموت، من حياة البرزخ والدار الآخرة، والعظيمتين: الجنة والنار.

فإذا كان ذكر الموت صيقلًا لجلاء القلب، فإن الموت إذا كان أشد ما قبله فهو أهون ما بعده، فبعد الموت مراحل خطرة، وعقبات شديدة، وأهوال كبيرة، تبدأ بحياة البرزخ، أو حياة القبر، فالإنسان الذي كان يعيش في الدنيا في سكن آمن، وظل ظليل، وعيش رغيد، وأهل وأصحاب، سرعان ما ينتقل من سعة الدار إلى ضيق القبر، ومن أنس الأهل إلى وحشة اللحد، ومن رفقة الخلان إلى رفقة الديدان.

ذكر القشيري عن أبي علي الدقاق قال: دخلت على الإمام أبي بكر بن فورك عائدًا، فلما رآني دمعت عيناه، فقلت له: إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك، فقال لي: تراني أخاف من الموت، إنما أخاف مما وراء الموت!

وقد جاء عن عثمان بن عفان: أنه كان إذا وقف على قبر، يبكي حتى تبل دموعه لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي! فقال: إني سمعت رسول الله صصص: «**القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد**»، وسمعت رسول الله صصص يقول: «**ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفظع منه**»، قال هانئ مولى عثمان: وسمعت عثمان ينشد على قبر:

فإن تنج منها تنج من ذي عظمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

وأنا لا أعني بالقبر: ذلك الشق في الأرض الذي يدفن فيه الإنسان - بعد

موتـه فـي وادي المـوتى - فهنـاك شـعوب لا تعـرف الـدفن، ولا القبـور، مثـل أولئك الذين يحرقون موتاهم، ثم يحتفظون بترابهم - وهو كل مـا بقـي مـنهم - فهذه الحفنات من الرماد الباقي من حرق الجثة، هي: القبر، وإن فيهـا لموعظـة وعبرة!

ونحن المسلمين نؤمن إيمانًا لا يتطرق إليه ريـب: أن هذا الكـون - علـى مـا فيـه مـن جمـال وإبـداع - سـتطوى صـفحته، وتتهـدم أركانـه، وتتغيـر معالمـه، ويستحيل كل جمع فيـه إلـى شتـات، وكـل حـي إلـى ممـات: **{كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ}** [القصص: 88] هذه السماء فوقنـا ستنفطر، هذه الكواكب ستنتثر، وهذه الأرض ستبدل غيـر الأرض، وهذه الشمس ستكور، وهذه النجوم ستنكدر، وهذه الجبـال ستسير، وهـذه البحـار ستفجر، أو تسجر، وهذه القبور ستبعثر: **{يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ}** [إبراهيم: 48].

{وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا 105 فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا 106 لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا} [طه: 105 - 107].

وأن الله تعـالى سيبعث هـؤلاء المـوتى، ويحييهم فـي يـوم آت لا ريـب فيـه: **{يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ}** [القمر: 7].

فيقـول النبـي صـصـص فيمـا روتـه عائشـة ررررا: «**يحشـر النـاس يـوم القيامة حفاة عراة غولا**» - أي غير مختونين - قالت عائشـة: فقلت: الرجـال والنسـاء جميعًـا ينظـر بعضـهم إلـى بعض؟ قـال: «**الأمـر أشـد مـن أن يهمهـم**

ذلك»[225].

وسمعت ذلك أم سلمة ررر ا، فقال: يا رسول الله، واسوأتاه أينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «**شغل الناس**»، قالت: ما شغلهم؟ قال: «**نشر الصحائف، فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل**» قال المنذري: رواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد صحيح.

يشير إلى قوله تعالى: {**وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ**} [الأنبياء: 47].

وقوله تعالى: {**وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا 13 ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا**} [الإسراء: 13، 14].

وقوله تعالى: {**وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا**} [الكهف: 49].

من واجب كل مقصر، بل كل مكلف، أن يخاف هذا اليوم العظيم: يوم الزلزلة، ويوم القارعة، ويوم الحاقة، ويوم الصاخة، ويوم الطامة الكبرى، وأن يقرأ القرآن، وخصوصًا الجزءين الأخيرين منه، ليرى القيامة أمامه رأى العين، يرى الجحيم وقد سعرت، والجنة قد أزلفت، ويرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يرى الحقائق قد تكشفت، والعيون وقد زالت عنها الغشاوات، قد سقط الملوك الزائفون، وبقي ملك واحد هو ملك يوم الدين. ومالك يوم الدين: {**يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ**

---

(225) متفق عليه.

ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ} [غافر: 16].

ما أبلغ ما وصف القرآن ذلك اليوم الموعود، واليوم المشهود! لنقرأ معًا هذه الآيات: **{فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ 34 يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ 35 وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ 36 فَأَمَّا مَن طَغَىٰ 37 وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا 38 فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ 39 وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ 40 فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ}** النازعات: 34 - 41].

{فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ 33 يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ 34 وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ 35 وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ 36 لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ 37 وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ 38 ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ 39 وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ 40 تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ 41 أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ} [عبس: 33 - 42].

إن مزية المؤمنين أنهم يخافون هذا اليوم ويتقونه، ويحسبون حسابه، ولا غرو أن كان من أواخر ما نزل - أو آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: **{وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ}** [البقرة: 281].

وقد وصف الله الأبرار من عباده بقوله: **{وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا 8 إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا 9 إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا}** [الإنسان: 8 - 10].

وقال تعالى: **{وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ 1 ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ 2 وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ 3 أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ 4 لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ 5 يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}** [المطففين: 1 - 6].

هذا فيمن زاد حفنة في كيل أو نقصها، أو زاد دراهم من وزن أو نقصها، طمعًا في أن يأخذ أكثر من ماله من حق، فكيف بمن ينهب أموال الناس نهبًا، وما بالك بمن يختلس الأموال العامة بالملايين؟ ومن يقبل الرشا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة؟ ومن يجمع الثروات الطائلة من عرق الكادحين، ودموع المستضعفين، ودماء المظلومين؟ ومن يتاجر في السلع الفاسدة، والأغذية الضارة، والمخدرات القاتلة ليربح الملايين القذرة على حساب الشعوب والجماهير؟ ثم يغسل ملايينه - فيما زعموا - بعد ذلك، وهي من الخبث والنجاسة بحيث لا تطهرها مياه البحار ولا المحيطات.

ما أحوج هؤلاء إلى أن يقفوا يومًا مع أنفسهم، ليتذكروا هذا اليوم العظيم الذي تنصب فيه الموازين، وتنشر فيه الدواوين، ويحاسبهم فيه رب العالمين، ويشهد عليهم فيه شهود من أنفسهم **{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 24 يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ}** [النور: 24، 25].

{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ 19 حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 20 وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [فصلت: 19 - 21].

أحاديث في الترهيب من النار:

ومما يجب على المكلف - ولا سيما العاصي - أن يذكره: النار، دار العذاب التي أعدها الله للكافرين أساسًا والعصاة تبعًا. وحذرنا الله تعالى منها

في كتابه، وعلى لسان رسوله صصص.

يقول تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ} [التحريم: 6].

وأكتفي هنا بنقل قليل من الأحاديث في «الترهيب من النار» مما ذكره الإمام المنذري في كتابه الشهير «الترغيب والترهيب»:

فعن أنس ررر قال: كان أكثر دعاء النبي صصص: {رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ} [البقرة: 201]، رواه البخاري.

وعن عدي بن حاتم ررر قال: قال رسول الله صصص: «**اتقوا النار**» قال: وأشاح، ثم قال: «**اتقوا النار**» ثم أعرض وأشاح ثلاثًا، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**». روا البخاري، ومسلم.

«أشاح» - بشين معجمة وحاء مهملة - معناها: حذر النار كأنه ينظر إليها.

وعن أبي هريرة ررر قال: لما نزلت هذه الآية: {وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ} [الشعراء: 214] دعا رسول الله صصص قريشًا، فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا**». رواه مسلم واللفظ له، والبخاري، والترمذي، والنسائي بنحوه.

وعن النعمان بن بشير ررر قال: سمعت رسول الله صصص يخطب يقول: «**أنذرتكم النار، أنذرتكم النار**» حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، حتى وقعت خميصة(226) كانت على عاتقه عند رجليه، رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم(227).

وعن أنس ررر عن رسول الله صصص أنه قال: «**والذي نفسي بيده، ولو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**رأيت الجنة والنار**»! رواه مسلم، وأبو يعلى.

وعن أبي هريرة ررر عن النبي صصص قال: «**ناركم هذه** - ما يوقد بنو آدم - **جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم**» قالوا: والله إن كانت لكافية! قال: «**إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها**». رواه مالك، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وليس عند مالك: «**كلهن مثل حرها**».

وعن أبي هريرة ررر عن النبي صصص قال: «**لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها**»، قال: «**فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها**»، قال: «**فرجع إليه قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها، فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد! وقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها**»، قال:

---

(226) الخميصة: كساء أسود وأحمر له أعلام.

(227) ووافقه الذهبي (287/1)، وفات المنذري أن ينسبه إلى أحمد، وهو في «المسند» (272/4).

«فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها». رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي، واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح[228].

أحاديث في الترغيب في الجنة:

وعن أبي هريرة عن النبي صصص قال: **«والذي نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو هجر ومكة»**. رواه البخاري، ومسلم في حديث، وابن ماجه مختصرًا إلا أنه قال: **«لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»**.

وعن سهل بن سعد ررر أن رسول الله صصص قال: **«ليدخلن من أمتي سبعون ألفًا** - أو سبعمائة ألف - **متماسكون آخذ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**. رواه البخاري، ومسلم.

وعن أبي هريرة ررر قال: قال رسول الله صصص: **«إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم**

---

(228) الحديث عند أبي داود برقم (4744)، وعند الترمذي برقم (2563).

آدم ستون ذراعًا في السماء».

«الألوة» - بفتح الهمزة وضمها، وبضم اللام، وتشديد الواو وفتحها - من أسماء العود الذي يتبخر به، قال الأصمعي: أراها كلمة فارسية عربت.

وعن المغيرة بن شعبة ررر عن النبي صصص: «**أن موسى سسس سأل ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك ملك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب قال** (أي موسى)**: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر».** رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري ررر أن رسول الله صصص قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم! قال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**». رواه البخاري، ومسلم.

وفي رواية لهما: «**كما تراءون الكوكب الغارب**» - بتقديم الراء على الباء.

وعن أبي هريرة ررر أن رسول الله صصصص قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**». رواه البخاري.

وعن أبي موسى الأشعري ررر عن النبي صصصص قال: «**إن للمؤمن في الجنة بخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا**». رواه البخاري، ومسلم، والترمذي إلا أنه قال: «**عرضها ستون ميلًا**»، وهو رواية لهما.

أما وصف القرآن للجنة، وترغيبه فيها، فهو معلوم لكل من قرأ كتاب الله، أو استمع إليه. اللهم اجعلنا من أهلها، وأسكنا الفردوس الأعلى فيها. آمين.

* * *

4- معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة

ومن أعظم البواعث على التوبة: أن يعرف العاصي آثار الذنوب في النفس والحياة، ويستحضر أخطار المعاصي في الدنيا والآخرة، فهي خطر على المرء في حياته الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، خطر على عقله وضميره، خطر على نفسه وجسمه، خطر عليه في ذاته وفي أهله وولده، وفي من حوله، خطر على الفرد، وعلى الأسرة، وعلى المجتمع، وعلى الأمة كلها - بل على الإنسانية قاطبة، بل على الإنسان والحيوان والنبات جميعًا.

وعلى الإنسان الذي عصى الله ززز: أن يعرف ويتذكر ويستحضر عقوبات الله تعالى على المعاصي والذنوب، فقد جرت سنته سبحانه أن يعاقب عليها في الدنيا قبل الآخرة، تنبيهًا للغافلين، وتعليمًا للجاهلين، وتذكرة للناسين.

يقول تعالى: **{ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الروم: 41].

والفساد هنا معناه: الخلل والاضطراب والكوارث التي تقع في الكون والحياة، وعلى الإنسان، بسبب ما كسبت أيديه من المعاصي والمخالفات لنواميس الله الشرعية والكونية، كما قال تعالى في آيات أخر: **{ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** [آل عمران: 182].

وإنما وقع هذا البلاء وهذه المصائب للناس **{لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ}** فهو سبحانه لا يجازيهم بكل ما عملوا من سوء، بل يعاقبهم ببعضه فقط، ويعفو عن الباقي وهو كثير - كما قال تعالى في سورة أخرى: **{وَمَآ أَصَٰبَكُم**

مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ} [الشورى: 30].

أكدت هذه الآية هذه القاعدة الشاملة الخطيرة، وهي أن ما أصاب الناس من مصيبة في حياتهم، فليس ذلك ظلمًا ولا اعتباطًا، بل هو جزاء وفاق لما قاموا به من أعمال سيئة، وتصرفات مرذولة، ثم بين زرز أنه لا يؤاخذ الناس بكل سيئاتهم، ولا يعاقبهم بكل ما كسبوا، وكل ما ظلموا، وإلا لأهلك الأحياء كلها على ظهر الأرض بظلم الناس وذنوبهم، يقول تعالى: **{وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ}** [النحل: 61]، **{وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ}** [فاطر: 45].

ثم هو سبحانه ينزل بهم هذه المصائب في أنفسهم وأموالهم، لا لينتقم منهم، ولكن «لعلهم يرجعون»، أي ليكونوا على رجاء الرجوع إليه، بعد أن شردوا منه، وضلوا عن سبيله، فهو تعالى يذكرهم بهذه البلايا من نسيانهم، وينبههم من غفلتهم لعلهم يرجعون ويتوبون.

وقد بين القرآن شؤم الكفر والظلم والمعصية على أهلها، فيما أورد لنا من قصص الأنبياء والمؤمنين، وأقوامهم المكذبين والعصاة، وكيف أنزل الله بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وكانت لهم أموال وأولاد، وجاه ومنزلة وأتباع، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئًا.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ} [الأنفال: 53].

{أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ 205 ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ 206 مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ 207 وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ 208 ذِكۡرَىٰ وَمَا

كُنَّا ظَٰلِمِينَ} [الشعراء: 205 - 209].

وفي سورة هود ذكر الله لنا قوم نوح وكيف أغرقهم الله بالطوفان، وكيف ودعهم الله بقوله: **{وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ}** [هود: 44]، وكيف أهلك من بعدهم عادًا: **{وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ 59 وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ}** [هود: 59، 60].

وبعد عاد جاءت ثمود، وقال لهم نبيهم صالح: **{فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ 150 وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ 151 ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ}** [الشعراء: 150 - 152].

ولكنهم لم يطيعوه، وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، فأخذتهم الصيحة أو الرجفة، فهلكوا جميعًا: **{كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ}** [هود: 68].

وجاء بعدهم قوم لوط وما ابتكروا من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين «فاحشة الشذوذ الجنسي» فقلب الله قريتهم عليهم وجعل عاليها سافليها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود: **{مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ}** [هود: 83].

وجاء بعدهم أهل مدين، الذين أشركوا بالله، وعثوا في الأرض مفسدين، وبخسوا الناس أشياءهم، وطففوا الكيل والميزان، فدعاهم نبيهم شعيب إلى الله وإلى الإصلاح، فكذبوا واعرضوا، وأصروا على ضلالهم وغيهم، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثين **{كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ**

ثَمُودُ} [هود: 95].

وجاء بعدهم فرعون، ومعه هامان، وقارون، وجاءهم موسى بالآيات، وسلطان مبين، فكذبوا وأعرضوا واستكبروا: **{وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ}** [النمل: 14].

واستخف فرعون قومه فأطاعوه، واتبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، وأغرق الله فرعون ومن معه أجمعين.

وقد عقب الله تعالى على أنباء هؤلاء الأقوام، وعاقبة ما آلوا إليه فقال تعالى يخاطب رسوله: **{ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ 100 وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ 101 وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ}** [هود: 100 - 102].

ويقول النبي صصص: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم تلا**[229]: **{وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ}**».

وفي السنة النبوية جاءت أحاديث صحاح وحسان شتى، تبين لنا ما تجلبه المعاصي على مرتكبيها من أضرار ومآسي في أولاهم قبل أخراهم.

وقد رأينا بأعيننا، ولمسنا بأيدينا: صدق هذه الأحاديث، وشاهدنا آثار المعاصي في حياتنا الخاصة والعامة.

تذكر هذه الأحاديث: ما رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عمر أن النبي صصص قال: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن،**

(229) متفق عليه عن أبي موسى. «صحيح الجامع الصغير» (1822).

وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين (أي القحط والمجاعة) **وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم ...**

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ... وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ززز، ويتحروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[230].

وها نحن نشاهد آثار هذه المخالفات والذنوب في دنيانا ماثلة للعباد، وبخاصة عقوبة الذنب الأول من هذه الخمسة، وهو الداء العضال الذي ظهر في عصرنا نتيجة انتشار الفاحشة والمعالنة بها، وهو ما يعبر عنه باسم «الإيدز».

كتاب «الداء والدواء» لابن القيم:

وللإمام ابن القيم رحمه الله ورضي عنه: كتاب كامل سماه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافعي» وقد يطلق عليه اسم «الداء والدواء»، وكله في بيان سوء آثار الذنوب والمعاصي، وشؤمها على الإنسان، فردًا ومجتمعًا، في دنياه وآخرته، في مادياته ومعنوياته، في علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته بالكون من حوله،

---

(230) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر. «صحيح الجامع الصغير» (7978).

وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وذلك بقلم ابن القيم البليغ، وأسلوبه الأدبي الرفيع.

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب، لابد لنا أن نقتبس منه - مع بعض التصرف - أهم ما فيه، وإن طال الاقتباس، لأننا نريد أن نوقظ الضمائر النائمة، ونحيي القلوب الميتة، ونقوي العزائم المسترخية، ونأخذ بأيدي العصاة حتى يتوبوا، وبأيدي التائبين حتى يستمروا، وبأيدي المهتدين حتى يزدادوا هدى.

من آثار المعاصي وشؤمها:

يقول ابن القيم: وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

حرمان العلم:

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي حجح:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي

حرمان الرزق:

ومنها: حرمان الرزق، وفي «المسند»: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» وقد تقدم، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق؛ فترك التقوى مجلبة للفقر؛ فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

الوحشة بينه وبين الله:

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلًا، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام! فلو لم تترك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حريًا بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب؛ فالله المستعان.

الوحشة بينه وبين الناس:

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان، بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشًا من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي.

تعسير أمور العاصي:

ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا؛ فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسرًا، وبالله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟

ظلمة القلب:

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته؛ حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادًا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

ومنها: أن المعاصي وهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوى قلبه قوى بدنه، وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة،

فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

الحرمان من الطاعة:

ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله، وتقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة، ثم رابعة وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكله أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها[231]، والله المستعان.

المعاصي تقصر الأعمار:

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد، فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور يقصر العمر.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع.

فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو: ذهاب بركة عمره ومحقها عليه. وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابًا كثيرة تكثره، وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده.

---

(231) في هامش الخطية وفي نسخة:

وكم من أكلة منعت أخاها بأكله ساعة أكلات دهر

وكم من إمرئ يسعى لشيء وفيه هلاكه لو كان يدري

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب ززز، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتًا غير حي، كما قال تعالى: {**أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ**} فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول: {**يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**} [الفجر: 24] فلا يخلو، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أولًا؛ فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلًا، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

الجر إلى معاصي أُخر:

ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعز على

العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلم جرا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات، وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة؛ فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها!

وقال آخر:

فكانت دوائي، وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزًّ، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليه، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزه إليها أزًّا، فالأول قوي جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه. وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه.

إضعاف إرادة الطاعة:

ومنها - وهو من أخوفها على العبد - أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية؛ فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصر عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

التبجح بالمعصية:

ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة؛ حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان عملت كذا وكذا، وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي صصص: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار: أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله تعالى، فيقول: عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه**»(232).

هوان العاصي على الله:

ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه.

قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا

(232) متفق عليه عن أبي هريرة. «صحيح الجامع الصغير» (4512).

هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: **{وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ}** [الحج: 18] وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

استصغار معصية الله:

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك؛ فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

وقد ذكر البخاري في «صحيحه» عن ابن مسعود قال: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فطار**».

شؤم المعصية على جميع الكائنات الحية:

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم!

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة «أي القحط» وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب تقول: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

فلا يكفيه عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له.

المعصية تورث الذلة:

ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد؛ فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: {**مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا**} [فاطر: 10]، أي فليطلبها بطاعة الله؛ فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه!

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها؟

إفساد العقل:

ومنها: أن المعاصي تفسد العقل؛ فإن للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر؛ فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، وتحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على

الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم؟

الطبع على القلب:

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين. كما قال بعض السلف في قوله تعالى: **{كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [المطففين: 14] قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

جلب لعنة الله على فاعلها:

ومنها: أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة الله ززز، ولعنة رسول الله صصص، فإنه لعن على معاص كثيرة، أو أعلن لعنة الله على مرتكبيها، والتي غيرها أكبر منها فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة، فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصولة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، ولعن آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهده، ولعن المحلل والمحلل له، ولعن السارق، ولعن شارب الخمر وسياقها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها، وحاملها والمحمولة إليه، ولعن من غير منار الأرض، وهي أعلامها وحدودها، ولعن من لعن والديه، ولعن من اتخذ شيئًا

فيه الروح غرضًا يرميه بسهم، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا، ولعن المصورين، ولعن من عمل عمل قوم لوط، ولعن من سب أباه وأمه، ولعن من كمه[233] أعمى عن الطريق، ولعن من أتى بهيمة، ولعن من وسم دابة في وجهها، ولعن من ضار مسلمًا أو مكر به، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكًا على سيده، ولعن من أتى امرأة في دبرها، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، ولعن من انتسب إلى غير أبيه، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، ولعن من سب الصحابة.

وقد لعن الله «في كتابه» من أفسد في الأرض وقطع رحمه.

ولعن من آذاه وآذى رسول الله صصص.

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى.

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين.

ولعن رسول الله صصص الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل، ولعن الراشي والمرتشي والرائش - وهو الواسطة في الرشوة - ولعن على أشياء أخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

(233) كمه أعمى: يريد أنه أضله وعمي عليه، ولم يرشده إلى مقصده.

الحرمان من دعاء النبي والملائكة:

ومنها: حرمان دعوة رسول الله صصص ودعوة الملائكة؛ فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: {**ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ 7 رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ 8 وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ**} [غافر: 7 - 9].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما؛ فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

إضعاف سير القلب إلى الله:

ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير؛ فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه؛ فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه. والله المستعان.

المعاصي تزيل النعم:

ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم، وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب ررر:

«ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: 30]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

ولقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن الذنوب تزيل النعم
وحُطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم(234)

إنساء العاصي نفسه:

ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسه، وإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسى نفسه فأي شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: 19] فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: 67] فعاقب

---

(234) حطها: احفظها وحصنها، واجعل الطاعة كالسور المحيط بالمدينة ليمنع عنها عادية المغيرين.

سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه؛ فلا يخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه؛ فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره. وأيضًا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها؛ فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضًا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها؛ فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد، والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

المعيشة الضنك:

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة قال تعالى: **{وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ}** [طه: 124]، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات؛ فإن عمومها من حيث المعنى؛ فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم

في الدنيا بأصناف النعم؛ ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر؛ فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر؛ فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات؛ فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صصص في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل؛ فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا كما قال تعالى: **{مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ}** [النحل: 97]، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة؛ فلهم أطيب الحياتين؛ فهم أحياء في الدارين، ونظير هذا قوله تعالى: **{لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ}** [النحل: 30]، ونظيرها قوله تعالى: **{وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ}** [هود: 3] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين؛ فإن طيب النفس، وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه، وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف!

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب! وقال آخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة؛ فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي صصص إلى هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر**»(235)، وقال «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»(236).

ولا تحسب أن قوله تعالى: **{إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ 13 وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ}** [الانفطار: 13، 14] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار؛ فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه

---

(235) رواه الترمذي وحسنه من حديث ؟؟؟.

(236) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد المازني، وأبي هريرة. «صحيح الجامع الصغير» (5586، 5587).

المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه؛ فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد؛ فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردها إلى أجسادها؛ فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينة بذكره.

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين!

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع، وضمن الثمن عن المشترى، هو الرسول صصص، وقد بعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه   فمن ذا له من بعد ذلك يكرم؟

{وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ} [الحج: 18].

* * *

خاتمة

لقد تبين لنا من هذه الدراسة: أن أعظم ما ينفع الإنسان طاعة ربه، وأكبر ما يضره معصيته ززز، فليس أضر على الإنسان في دنياه وآخرته من ذنوبه وخطاياه، بل الذنوب والخطايا ضرر على المجتمع كله، وليس على المذنب وحده، كما قال تعالى: {**وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ**} [الأنفال: 25].

بل الذنوب والخطايا خطر على البيئة كلها: برية وبحرية، حيوانية ونباتية، بل على التوازن الكوني كله، كما نقرأ عن «ثقب الأوزون» ونحو ذلك.

كما عرفنا أن كل نبي آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فمن رحمة الله بالإنسان أن أعطاه هذه «الممحاة» أو هذه «المغسلة» وهي التوبة ليغسل بها نفسه كلما زلت قدمه، وغلبت فيه نزعة الطين على نفحة الروح.

وكان إنسان في حاجة إلى التوبة، وعلى قدر رهافة حسه، ورقة شعوره، يكون إحساسه بالتفريط في جنب الله، والتقصير في حقوق الناس، وإحساسه بالحاجة إلى التوبة.

والتوبة مطلوبة من الفرد وهي مطلوبة من المجتمع أيضًا من ذنوبه العامة، مثل تعطيل شريعة الله، وإهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستباحة الخلاعة والمسكرات والربا المؤذنة بحرب الله ورسوله، والإعراض عن الوحدة، والاستجابة لدواعي الفرقة والخلاف، والولاء لغير الله بل موالاة أعداء الله، والوهن والدعوة إلى السلم مع المعتدين على الأرض

والعرض ... كل هذه تتطلب من المجتمع كله أن يتوب إلى الله، ويرجع إليه.

ومن الناس من يتصور أن الذنوب تنحصر في الزنى وشرب الخمر ونحوها، ويغفلون ذنوبًا أخرى كالتي تتعلق بحقوق الناس وكراماتهم وحرياتهم، أو تتعلق بتلويث البيئة أو إفساد الحياة.

من الناس من تراه يصلي في المسجد، ويتلو القرآن، ويسبح في اليوم مائة مرة، ويذهب إلى العمرة في كل رمضان، وهو - مع هذا – يرتكب مآثم فظيعة، أو يعاون فيها، مثل تزوير الانتخابات، أو الاعتداء على حرية الشعب، وحقوق الإنسان، أو قبول الرشوة باسم الهدية أو العمولة، أو تسهيل استيراد الأغذية الفاسدة، أو الملوثة بالإشعاع، أو لحوم البقر المجنونة، أو مدح الحكام الطغاة، وترويجهم لدى الشعوب.

ومن الناس من يعتدي على البيئة، وفيلوثها أو يفسدها أو يدمرها، بعمل من الأعمال التي لا يرضاها الله ولا رسوله ولا المؤمنون، ولا يحسب ذلك من الذنوب والمعاصي التي يجب عليه التوبة والاستغفار منها.

وهناك كثير من الذنوب والخطايا يقع فيها الجم الغفير من البشر، وهم لا يشعرون، لجهلهم أو لبلادة حسهم، أو لخفائها عليهم، ولا سيما إذا كانت من خطايا الضمائر ومعاصي القلوب، التي تدق وتخفى على كثير من الناس.

وطوق النجاة للإنسان من هذا المأزق: أن يتوب إلى الله تعالى توبة عامة شاملة: مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد، وفي «صحيح ابن

حبان»: أن النبي صصص قال: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»، فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: «**أن تقول: اللهم إني أعوذ بك من أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.

وفي «الصحيح» عنه صصص: أنه كان يدعو في صلاته: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، و خطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدامت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت**».

وفي الحديث الآخر: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، خطأه وعمده، سره وعلانيته، أوله وآخره**».

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

فيا أيها الشاردون عن الله، آن لكم أن ترجعوا ... ويا أيها الغافلون عن الآخرة، آن لكم أن تنتبهوا، ويا أيها الناسون للموت، آن لكم أن تتذكروا ... ويا أيها السكارى بحب الدنيا، آن لكم أن تصحوا ... ويا أيها الهازلون، آن لكم أن تجدوا ... ويا أيها المستمرئون للمعاصي، آن لكم أن تتوبوا ... توبوا والباب مفتوح قبل أن يغلق، والفرصة متاحة قبل أن تفوت، وفي العمر بقية قبل أن تضيع: {**مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ 10 وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا**

تَعۡمَلُونَ} [المنافقون: 10، 11].

اللهم تب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكم: {**رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ 192 رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ 193 رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ**} [آل عمران: 192-194].

* * *